أحمد صالح رابضة

مَعَالِمُ عَدَنَ التَّارِيخِيَّة

مركز الدراسات والبحوث اليمني

المركز الفرنسي للدراسات اليمنية

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم عدن التاريخية

أحمد صالح رابضة

معالم عدن التاريخية

مركز الدراسات والبحوث اليمني - المركز الفرنسي للدراسات اليمنية

الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م
حقوق الطبع محفوظة
- مركز الدراسات والبحوث اليمني
الجمهورية اليمنية - صنعاء - شارع الزبيري - ص.ب ١١٢٨
هاتف ٢٠٠٤٨٥ - ٢٠٠٤٧٠ - برقياً : يمنات

- المركز الفرنسي للدراسات اليمنية - صنعاء

الجمهورية اليمنية - صنعاء - شارع ٢٦ سبتمبر - بيت العجمي - ص.ب ٢٦٦٠
هاتف ٢٧٥٤١٧ - فاكس ٢٧٠٧٢٥
e-mail: fburg@y.net.ye

تنفيذ
دار الفكر المعاصر
لبنان - بيروت

تصدير

لعلي لا أغلو في القول إن معالمنا التاريخية والأثرية تعاني من نقص كبير في الدرس المنهجي الأكاديمي المستقصي، المستند إلى المصادر الكلاسيكية، ومعطيات الاستكشافات الأركيولوجية الحديثة، وعلى الأخص، من قبل الكوادر اليمنية المتخصصة. ولعل ثمة أسباباً كثيرة كنا قد أتينا عليها في موضوعات سابقة لا مجال لذكرها هنا أهمها على الإطلاق صغر حجم المساحة المصدرية في المكتبات المتخصصة، أو التي ينبغي أن تكون متخصصة، وعدم توفر كتب الآثار والتراث حديثة التحقيق والدراسة، والتي غالباً ما تصدر في الخارج ويصعب على الباحثين والدارسين في الداخل الحصول عليها، وهي كثيرة كثرة مذهلة، وتحقيقات ودراسات الاختصاصيين في اليمنيات في العالم كله، وهي الأخرى عزيزة الوجود بالنسبة لنا.

إن توفر هذا الكم الكبير من المصادر قد يساعد الباحثين والدارسين المحدثين على تتبع سير حركة البحث العلمي النظري، والتطبيقي -وعلى الأخص ما يتعلق بدراسة المعالم التاريخية والأثرية في بلادنا، مقارنة بدراسة المعالم المختلفة في البلاد العربية والعالم كله. ولست أظن أن الدراسة الميدانية وحدها كافية لتقصي ودرس هذه المعالم، فإذا أردنا على سبيل التمثيل دراسة ميناء قنا التاريخي -آثارياً- لا شك أننا سنكون في حاجة كمرحلة أولى وضرورية إلى رصد وفحص المصادر الكلاسيكية التي تناولت هذا المعلم وهي في معظمها مصادر يونانية. وقد دأبت البعثات الأثرية قبل الشروع في دراسة موقع أو معلم تاريخي ما على درس هذا المعلم مصدرياً عبر دراسة مستقصية للإشارات والملاحظات الواردة في هذا المصدر أو ذاك، ثم عقد المقارنات بين المرويات، ومعطيات ونتائج البحث الأثري الأركيولوجي.

وقد ظلت معالمنا التاريخية الماثلة أمامنا –على الأقل– المنارة، الصهاريج، المساجد، الأبواب، السدود، القلاع والحصون، الدور المشهورة كدار العفيف بالضبيات، والدور الأخرى المندثرة، وغيرها كثير، ظلت ردحاً من الزمن طي النسيان لا نعرف عنها شيئاً ذا بال إلا ما يرد من إشارات في كتب التاريخ التي تفيد بأنها من مخلفات الأدوار التاريخية المختلفة للحضارة اليمنية، ومن هذه الكتب التي أفردت فصولاً عن معالمنا التاريخية كتاب تاريخ ثغر عدن للمؤرخ أبي محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بامخرمة المتوفى سنة ٩٤٧هـ[١] مستنداً إلى تاريخ المستبصر لابن المجاور.

وإشارات متفرقة أخرى في كتب الهمداني، والقلقشندي، والمقدسي، والدينوري، وعمارة اليمني، وأبي الفداء، والخزرجي، وبامخرمة وغيرهم، وهي إشارات غير دقيقة لم تفصح عن زمن تشييد هذه المآثرة أو تلك، فجاءت هذه الإشارات مقتضبة لا تشفي غليل الباحث، ولا تقدم له تصوراً شاملاً عنها. وقد ظهر الخلط وتباين الروايات فيها واضحاً، ففي حين ينسب ابن المجاور بناء المنارة للفرس؛ ويروي قصة ظريفة في هذا الصدد يجمع المؤرخون بما فيهم أبو الفداء –وتبدو روايته أكثر وضوحاً– على أنها من مخلفات العصر الأموي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يختلف الكتاب الأوربيون، والبريطانيون بصفة خاصة في ذلك اختلافاً يبعث على الحيرة[٢].

ثم يأتي الآثاريون فيدلون بدلوهم حيث يرى سيرجي شيرنسكي أن المنارة شيدت في القرن الثامن الميلادي، وأن زخرفتها تعود إلى القرن السادس عشر، وأن قاعدتها المضلعة ربما كانت قائمة على أثر قديم لعله يعود إلى ما قبل الإسلام[٣]. وقد استند كما يلاحظ في استنتاجه هذا إلى المصادر الكلاسيكية، والمعاينات الأولية للموقع، والمقارنات بين المآثر من حيث زخرفتها وطريقة البناء.

ويبدو التباين واضحاً في الروايات التي يسوقها الباحثون، والمؤرخون، والدارسون بمختلف مذاهبهم ومناهجهم العلمية عن الصهاريج، فمنهم من يعزو بناءها إلى الرسوليين والطاهريين، ومنهم من يميل إلى الاعتقاد بأنها من مخلفات

الحضارة اليمنية القديمة[٤]، ومنهم من يخلص إلى القول: «إن صهاريج الطويلة وحدها هي مجرد صرائف»[٥]. «وأن ما يعنيه الكتاب والرحالة الأقلمون بصهاريج عدن هي تلك الشبكة من الصهاريج داخل مدينة عدن»[٦]. وقد ذهب البحث الأثري مذهباً آخر، وسلك مسلكاً يغاير هذه الآراء، أو يكاد، وذلك بعقد المقارنات بين المآثر المماثلة في بلادنا، في بيحان، والضالع، وحضرموت وغيرها، تمتاز بنفس مزايا ومواصفات صهاريج مدينة عدن وتتفاوت في أحجامها، وسعتها مما حدا بالدارسين الآثاريين إلى القول «إنها من مخلفات الحضارة اليمنية القديمة»[٧].

وقد اكتشفت البعثة اليمنية السوفيتية المشتركة أثناء تنقيبها في مستوطنة قنا التاريخية بمحافظة شبوه صهاريج صغيرة، لعلها تتفاوت في أحجامها، وعثر الأهالي بمدينة الشحر على صهاريج وخزانات مختلفة الأحجام في

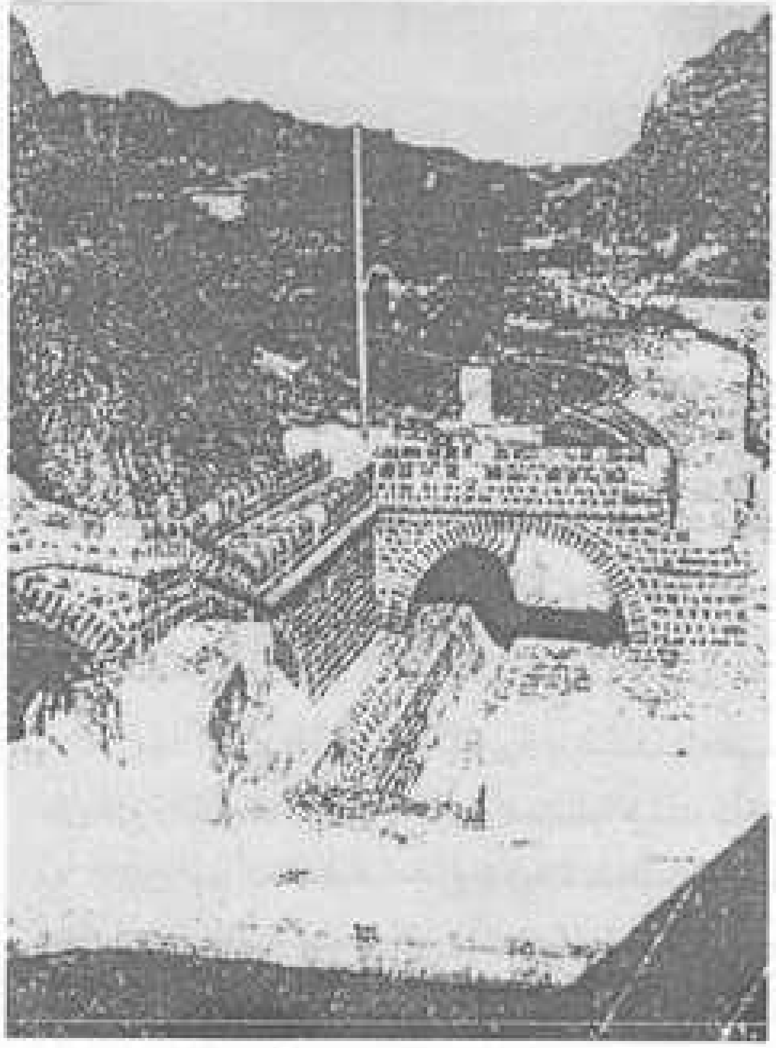

صهاريج الطويلة

(جبل حذف) في الطريق المؤدية إلى ثبالة، لا شك أنها هي الأخرى من المخلفات القديمة.

ولعلنا ندرك -والحال هذه- أن اليمنيين الأقدمين عرفوا فن الهندسة المعمارية وأتقنوا وسائلها، فبنوا السدود الضخمة، كسد مأرب المشهور، وسدود أخرى أتى على ذكرها المؤرخ الهمداني، وشيدوا المعابد الفخمة، والدور المختلفة التي اكتشفت حديثاً في ريبون بوادي دوعن، وفي مستوطنة قنا التاريخية بمحافظة شبوه، وشقوا الأنفاق والممرات العملاقة، كنفق عدن التاريخي، وممر مبلقه بمحافظة شبوه، وكلاهما يرجعان في أغلب الظن إلى مخلفات الحضار اليمنية القديمة. وقد أثار ممر مبلقه إعجاب الآثاري وبندل فيلبس فوصفه وصفاً دقيقاً في كتابه كنوز مدينة بلقيس[٨]. هذا إلى جانب المآثر والمعالم الكثيرة التي امتلأت بها وديان، ووهاد، وسفوح الأرض اليمنية، ومعظمها في الشطر الشمالي من الوطن اليمني، وقد أتى على ذكرها الأستاذ السياغي في كتابه معالم الآثار اليمنية[٩].

إن الاعتقاد السائد لدى بعض الدارسين الذين يشككون في الزمن التاريخي لبناء الصهاريج، ويسعون جاهدين إلى قطع الصلة بينها وبين المخلفات الحضارية للأدوار التاريخية للحضارة اليمنية القديمة، يثير بعض التساؤلات، بيد أنه يغني البحث العلمي بما يثيره من جدل ونقاش يفيد الدارسين المحدثين، ويحفز النفس إلى مزيد من البحث المنهجي الرصين، على الرغم من أن البحث الأثري في بلادنا يؤكد على الأخذ بنظرية المآثر المماثلة ومقارنتها بعضها بالبعض الآخر، ويخلص إلى أن هذه المآثر ترجع إلى المخلفات الحضارية القديمة.

وقد أجرى الباحثون الآثاريون دراسات فاحصة على جزيرة صيرة -كموقع تاريخي وآثاري قديم هو الآخر، وكمنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ أقدم الأزمنة... تبين لهم أن اكتشاف الجزيرة هو اكتشاف لتاريخ مدينة عدن[١٠]. ودعوا إلى إيلاء أهمية خاصة لهذه المواقع الآثارية كلها والعناية بمخلفاتها، وإجراء الفحوصات والدراسات المستمرة عليها بغية الحفاظ عليها.

وتجدر الإشارة أن التشييدات الحديثة ومنها (شق الطريق الدائري) في هذه

الجزيرة قد مس بشكل وبآخر بعض المآثر القديمة -من وجهة نظرنا- فقد تلاشت المحطة البحرية التي كانت تقف بمحاذاة (قصر الثورة)، الشكر قديماً، مقر مركز الأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، ولعل بعض حجارتها السوداء الداكنة تعود إلى

مركز الأبحاث الثقافية (الشكر قديماً)

مخلفات سوق عدن القديم، وكان أولى بالجهات المعنية في مثل هذه الأحوال أن تقوم بتوثيقها قبل تلاشيها، وقبل أن تكتسحها المشاريع العمرانية الحديثة.

لقد نبه علماء الآثار وخبراء المعالم التاريخية على أهمية الحصون القائمة على السلسلة الجبلية في جزيرة صيرة وحقات، بما في ذلك القلعة التاريخية التي تضرب بجذورها إلى القدم، حيث كانت هذه الحصون مأهولة بالسكان. وقد أكدت المصادر الكلاسيكية صحة ما ذهب إليه هؤلاء العلماء في هذا الصدد فأفادت أن قادة البلد في عصورها السحيقة والوسيطة كانوا يلجؤون إليها ويلوذون بها، وكانت مساكنهم على قمم الجبال، على (الخضراء) و(المنظر) و(التعكر)، ونذكر من هؤلاء آل زريع، وآل أيوب، والأقوام الأخرى الوافدة كالبربر، وأهل القمر. وكانت تنتشر في هذه

المواضع العديد من الدور المشهورة (كدار السعادة) وهي دار ذات طراز فريد، و(دار البندر)، و(دار صلاح)، و(دار الخضراء) وغيرها، ولهذا فالمنطقة كلها تعد من أقدم أحياء مدينة عدن، وقيام المشاريع العمرانية عليها ينبغي أن يتم بحذر شديد، وبطرائق علمية كي لا يمس أثراً ما زال قائماً، أو مطموراً. وفي جولة استطلاعية (الجبل ضراس) أبو الوادي، شاهدت في صيف عام ١٩٨٥م بقايا بعض الشويرات الجبلية التي اختفت بفعل التعرية أو نتيجة التفجيرات الجارية في الجبل بغية شقه.

ولاشك أن معالم مدينة عدن وحدها قد تغيرت تغيراً كبيراً منذ الاحتلال البريطاني سنة ١٨٣٩م، فقد تهدمت العديد من القلاع والتسويرات وشيدت أسوار أخرى، ورممت قلاع كثيرة منها تلك التي رممها (جون وستون) البريطاني الذي رمم السور المعروف (بدرب الحوش) والقلاع المنتشرة على جبل التعكر، ناهيك عن بعض المآثر والمعالم الأخرى كصهاريج الطويلة سالفة الذكر -التي رممها بليفير- وارتدت منذ أيامه حلة قشيبة، غيرت معالمها الأصلية. ولا يخالج أي باحث منصف الشك في أنها تضرب بجذورها إلى القدم، على الرغم مما طرأ عليها من تغيير.

والواقع أن التغييرات الطارئة على المعالم أمر لا غبار عليه، خاصة تلك التي تقادم عليها الزمن، فقد تكون نتيجة عوامل التعرية وعوامل طبيعية أخرى، وهنا يستطيع الدارس الآثاري تحديد الضرر الناتج عنها ووضع الحلول لتلافيه، أما تلك التي تمسها الأيدي الآثمة أو الغافلة التي تجهل طبيعة الأثر والمعلم، فضررها أعمق حيث تستطيع تعميق الضرر فلا يجد الدارس الآثاري منفذاً لتفادي انتشاره، بل وربما أدى إلى مسخه تماماً كما هو الحال في المحطة البحرية سالفة الذكر التي قد يظن بعض الدارسين أنها ليست من الآثار في شيء، ولا شك أنها شيدت قبيل تشييد البراقات العسكرية في عهد الإدارة البريطانية قبل عام ١٩١٨م.

ولقد طرأت التغيرات غير المقصودة على بعض المآثر الأخرى كقصر الثورة (الشكر قديماً) مقر مركز الأبحاث الثقافية في الوقت الحاضر، والذي يطل على شاطئ صيره بالخليج الأمامي، وهو من المنشآت التاريخية المتميزة حيث أنشئ على الأرجح في العقد الثاني من هذا القرن حدود ١٩١٨م، وتعرض القصر في أوائل عقد الثمانينات للتبييض والطلاء الذي كاد أن يفقده معالمه الأصلية، ذلك لأنه يُفسد

قصر السلطان بسيئون

طبيعة الأثر التاريخي في المعلم ويُضفي عليه جدة مفتعلة. وقصر الثورة بسيئون التي أضيفت إليه أعمدة جديدة، ومواسير مجارٍ[١١] نبه إليها الخبراء الآثاريون في تقاريرهم العلمية.

ومجمع الصهاريج وما استحدثت فيه من تشييدات كادت أن تمس الأثر التاريخي. وقد دعا الخبير ميان عبد الحميد في تقريره المقدم إلى المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف إلى ضرورة نقل بعض التشييدات الحديثة من مواضعها القريبة من الصهاريج إلى مواضع أخرى[١٢]. ودعا البعض الآخر من الخبراء إلى إزالة التبييض والتجصيص المفتعل وحديث العهد من بعض الصهاريج[١٣].

إن الاكتشافات الأركيولوجية الحديثة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن اليمن غنية بمآثرها التاريخية والأثرية حيث تنتشر هذه المآثر والمعالم التاريخية والأثرية في كل منطقة يمنية شمالاً وجنوباً، مما يزيد الاعتقاد رسوخاً بأن اليمن منبع من منابع

الحضارة العالمية دون غلو في القول، وفي الحق إن نتائج التنقيبات والحفريات اللتين تقوم بهما البعثتان اليمنية- الروسية، واليمنية- الفرنسية في بلادنا، أكدت صحة ما نذهب إليه، ففي مستوطنة ريبون الواقعة في وادي دوعن بمحافظة حضرموت دلت النقوش المكتشفة حديثاً على انتشار الكتابة بين أوساط العامة بشكل آثار إعجاب العلماء، واكتشفت أطلال مبان حجرية ضخمة تعود إلى القرن الثالث-الرابع، ق. م، تعددت وظائفها كما يقول العلماء فغرفة للسكن وأخرى لحفظ الآنية، وثالثة للمواشي (١٤).

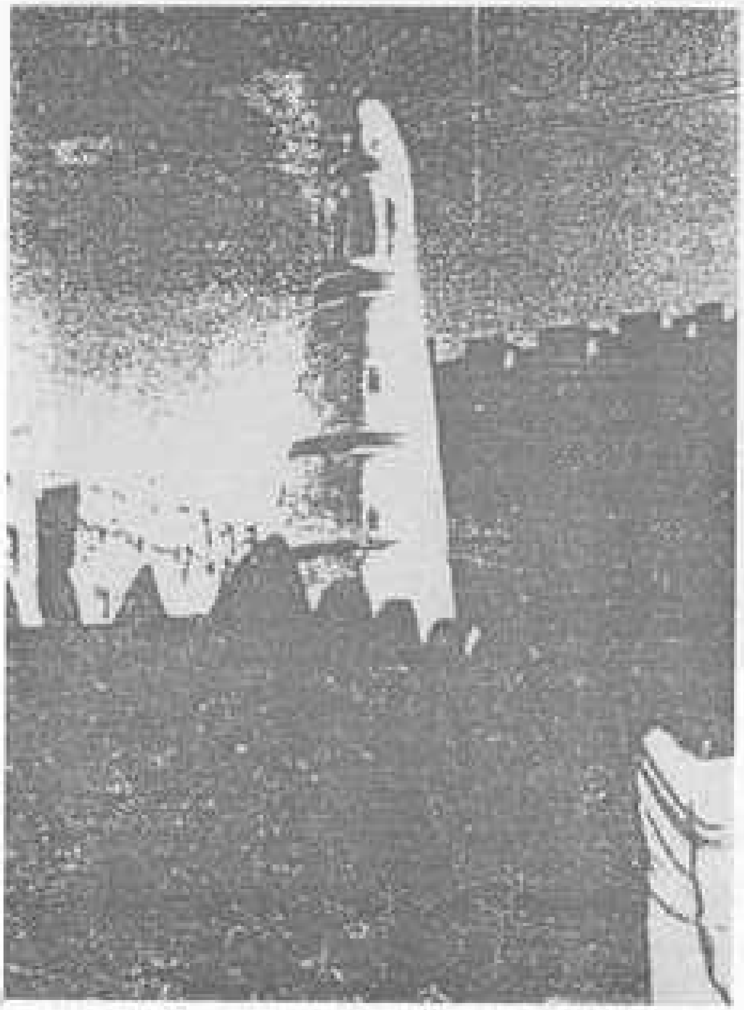

مسجد قديم بحضرموت

فإذا كنا في ماسبق نميل إلى الاعتقاد -من غير تحقيق ولا تثبيت- أن أهل القمر هم أول من بنى الدور الحجر بمدينة عدن مثلاً آخذين برواية ابن المجاور التي أطلقها في مرحلة ما، فلعل البحث الأثري مستقبلاً سيقف موقف النقيض من هذه الرواية، وهي رواية لاحظ لها من الصواب في ما نظن إلا إذا كان المراد منها فترة زمنية بعينها، ذلك أن المدينة كما يرى بعض المؤرخين برزت في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

كما برزت أطلال معابد ضخمة كمعبد الزهرة (عثتر) و(معبد ذات حميم) واكتشفت معابد مماثلة في حديقة معبد للإله القمر (سين) وآخر في مستوطنة مشطة في باقطفه، ومعابد أخرى في امعادية في مكيراس، إلى جانب العديد من المباني الحجرية الضخمة وكلها خرائب.

وأكدت الدلائل العلمية أن مستوطنة قنا التاريخية (حصن الغراب) الواقعة في محافظة شبوه شهدت تطوراً اقتصادياً واجتماعياً في القرون الساحقة وكانت تضم العديد من الجنسيات الوافدة، إذ كانت الصلات بينها وبين الأمم السائدة وقتذاك كبيرة، بحيث برزت مؤثرات اقتصادية على طريق فن المعمار، لعل بعثات الآثار تعمل على درسها واستقصائها. وقد أفادت التقارير العلمية أن الملك شعرم أوتر السبئي هاجم المدينة وأخرب معبدها وحصنها سنة ٥٢٥م، كما تخرّب الميناء حدود القرن الأول ق. م-القرن الثاني ب. م، بيد أنه عاد إلى وضعه السابق واستمر حتى القرن السابع الميلادي[١٥].

وأجريت حفريات متعددة أخرى في مناطق مختلفة، ففي (منطقة حسنة) في أبين، (وجبل قلع) في محافظة لحج عُثر على آثار تعود إلى العصر الحجري مما حدا بالعالم سيرجي شيرنسكي إلى القول أن جبل قلع هو المعلم الوحيد في العصر الحجري الأقدم في شبه الجزيرة العربية[١٦].

وفي تمنع (هجر كحلان) بمحافظة شبوه، اكتشف الدليل التجاري الذي حمل تفاصيل مهمة عن التجارة وأحكامها في دولة قتبان ومعين، وكشف النقاب أو كاد عن العلاقات التجارية السائدة حينذاك.

إن مجمل هذه المعلومات على قلتها المستقاة من تقارير البعثات اليمنية السوفييتية المشتركة وتقارير أخرى متفرقة تفيد أن اليمن في عصورها السحيقة كانت في أوج ازدهارها وتطورها بل تؤكد بالأدلة العلمية الدامغة صحة ماذهب إليه كتاب اليونان ومانقله إلينا صاحب كتاب الطواف حول البحر الأحمر، ولاشك أن التنقيبات القادمة ستأتي بالجديد والمستجد في هذه المجالات الحيوية.

والجدير بالإشارة أن كوادرنا اليمنية الآثارية المتخصصة وتلك التي لم تظفر

بعد بالتأهيل العلمي ببذل جهوداً في سبيل إرساء قاعدة بحثية متينة في اليمن حيث تشارك طائفة منها في مواسم التنقيب، وتقوم بوضع استنتاجات وإعداد أبحاث بالغة الأهمية كتلك التي تحويها التقارير الموسومة بـ(حضرموت) القديمة والمعاصرة، بيد أننا ندعو إلى تجذير وتأصيل هذه الجهود المثمرة بحيث تغدو تقليداً متبعاً سنوياً، وذلك عن طريق تشكيل بعثة آثارية يمنية صرفة، أو وحدة آثارية ذات مزايا ومواصفات مماثلة قدر الإمكان، تقوم بإجراء الدراسات الميدانية في مواضع ما زالت في حاجة للدراسة والفحص كجزيرة صيرة وما حواليها، وأحياء مدينة عدن القديمة -على الرغم من صعوبة ووعورة البحث الميداني فيها- ومساجدها ودورها العتيقة، وإعادة النظر في معطيات الدراسة الميدانية في المواقع الأخرى -على سبيل الدربة والترويض- كنقب الهجر في وادي ميفعه، ومستوطنة هجر بن حميد، ومقبرة حيد بن عقيل، والبحث الميداني في المناطق التاريخية المندثرة كالمياه، ورباك، واللخبة، وإرم ذات العماد (الأسطورة)، والدراسة المستقصية للدور التاريخية المندثرة كدار السعادة، ودار المنظر، ودار الخضراء، وغيرها، والقائمة كدار العفيف في الضبيات بالضالع التي تعد من مخلفات العصر الطاهري، وإجراء الدراسات المستقصية على المقابر التاريخية، والمساجد العتيقة كمقبرة جوهر التي يرقد فيها العديد من علماء اليمن، كالطيب عبد الله بامخرمة صاحب قلادة النحر، وتاريخ ثغر عدن. ومن المفيد الإشارة إلى أنه أجري حفر في المقبرة، كشف عن طرائق بالغة الأهمية في المثاوي، حيث عُثر على رخامة كبيرة على قدر مساحة المثوى تغطي أحد القبور، ومسجد عبد اللاه أحمد بن عيسى المهاجر بن أحمد بن عيسى المدفون في بور، بحضرموت، ومسجد الشيخ بن إسماعيل، وسعد تاج العارفين بالشحر، وبوابات مدينة الشحر وأسوارها التي تعرضت للاندثار بفعل تقادم الزمن، وعقود مسيال سمعون وغيرها مما لا يحضرنا الساعة.

ولا ريب أن دراسة هذه المآثر والمعالم ستؤتي ثمارها في المستقبل، وسوف تفعل هذه الممارسات -إذا كتب لها الاستمرار- فعلها بجدارة في خلق كادر له خبراته المميزة إلى جانب تأهيله العلمي.

ولعلنا بجهودنا هذه نستطيع تفادي حدوث التحلل، والتآكل في بعض المآثر، والسرقات والسطو في البعض الآخر على نحو ما حدث لمقبرة حيد بن عقيل التي قيل إن قبورها نهبت منذ بعثة ويندل فيلبس. كما سيؤهلنا هذا الصنيع لمعرفة ما يطرأ على الآثار من تزييف بهدف البيع.

ولقد صدق الخبير الروسي بطرس قرنازنفتش حين قال: «إن التاريخ والثقافة اليمنية لا يستطيع كتابتها بشكل كامل غير أبنائها»(١٧). وهذه حقيقة لا مناص منها، بل هي ماثلة للعيان في ظل النظرة العلمية الواعية للثقافة، والتراث، والآثار في بلادنا.

وعليه يتوجب علينا العناية والرعاية الكاملتين لجهود العاملين في هذه الحقول العلمية، من الكوادر اليمنية كي تستطيع أن تخطو بثبات نحو تحقيق ما تصبو إليه العقول وما تهدف إليه الخطط العلمية.

وبما أن المعالم التاريخية لم تحظ بالرعاية والعناية اللازمة من قبل الآثاريين، والباحثين المحليين من حيث تناولها، ودرسها، الدراسة المستقصية، فقد حاولنا بذل قصارى جهودنا في درسها، والتقصي عنها -قدر إمكانياتنا- مستندين إلى الدراسات الميدانية، والمصدرية في آن واحد، على الرغم من قلة الدراسات الأثرية والتاريخية في هذا المضمار، وندرة المصادر التي أشارت للمعالم من قريب أو بعيد.

وكان مُعولنا على المراجع، والمصادر التي أفردنا لها ثبتاً في نهاية كل دراسة، وهي قليلة لا ريب في ذلك، إلى جانب دراستنا الميدانية المتواضعة لهذا المعلم التاريخي، أو ذاك، وذلك بالنزول الميداني إلى المعالم، والبحث فيها، واستقصائها ومقارنة معطيات ما استنتجناه بنتائج الدراسة المصدرية المتأنية، وخلصنا إلى هذه الدراسة التي بين دفتي هذا الكتاب.

وقد آثرنا -بادئ ذي بدء- التركيز على أهم معالم مدينة عدن، وهي من المدن الأثرية المتميزة وتحتضن العديد من المعالم منها: صهاريج عدن وجزيرة صيرة، وقلعتها التاريخية، والمنارة التي تُعد من بقايا جامع عدن القديم -على الأرجح-

والذي قيل إنه يمتد من (إدارة البريد العام بعدن) إلى (الغرفة التجارية)، والسدود، والأسوار وأهمها: سور عدن القديم، الذي اندثر تماماً، والأسوار الجبلية، التي مازالت بقاياها ماثلة للعيان في بعض المواقع، والمساجد القديمة، وقنوات المياه، والحارات، والأحياء القديمة وأهمها: حارة الزعفران، والقطيع، وحافة حسين، والتي أتى على ذكرها المؤرخ الطيب بن عبد الله بامخرمه في كتابه (تاريخ ثغر عدن) وغيرها من المعالم.

لقد اختلطت المعالم التاريخية بالصبغة الأسطورية لدى ابن المجاور، وبامخرمه، والكتّاب المسيحيين بحيث غدت هذه الأسطورة، جزءاً لا يتجزأ من تاريخها، وهذه الصبغة في تصورنا دالة على أقدمية هذا المعلم أو ذاك، فقلعة صيرة مثلاً، دارت حولها موجة من الأساطير تؤكد أنها تضرب بجذورها إلى مخلفات الحضارة اليمنية القديمة، وقس على ذلك بقية المعالم والمآثر، كحارة الزعفران وبئرها المشهورة التي يُستخلص من مائها النبيذ الخالص على حد زعم ابن المجاور وبامخرمه.

إن هذا الجزء من معالمنا التاريخية بما فيه من ألوان القصور، يُعد اللبنة الأولى التي ينبغي أن تعقبها لبنات، ولبنات حتى نتمكن من بناء صرح معالمنا التاريخية، وهدفنا من وراء تقديمه اطلاع القارئ العربي على هذه النماذج الحضارية، فالكثيرون من أبناء وطننا العربي يعرفون الكم الهائل من الثقافات العربية، والعالمية، بيد أنهم يجهلون الكثير من مظاهر الحضارة في اليمن الطبيعية، ناهيك عن النماذج الحضارية المتميزة في عدن ولحج، ومكيراس، وشبوه، وحضرموت.

والله من وراء القصد.

دبي في ١٢ شعبان ١٤١٠هـ ٩ آذار مارس ١٩٩٠

أحمد صالح رابضه

هوامش

(١) بامخرمه، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله - تاريخ ثغر عدن منشورات المدينة - صنعاء - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ج(١)

(٢) الكاتب -مجلة المنارة العدد (١) ص٧٦

(٣ - سيرجي شيرنسكي -أضواء على الآثار اليمنية، إصدار مركز الأبحاث الثقافية، تقرير علمي ص١٧

(٤) الكاتب -مجلة الحكمة ١٩٨٧ العدد ١٤٠ ص٢٣

(٥) انظر أيضاً ابن المجاور -تاريخ المستبصر، تصحيح أوسكر لوفقرين منشورات المدينة ص١١٧

(٦) محيرز، عبد الله أحمد -صهاريج عدن دراسة منهجية حديثة ١٩٨٨م دار الهمداني ص٦٠ ومواضع أخرى.

(٧) انظر ملاحظات شيرنسكي -التقرير أضواء١٦، وتقرير ميان عبد الحميد عن الصهاريج مسودة -وتقرير ليكوك وروجر صيدح (تقارير بالمركز اليمني).

(٨) ويندل فيلبس كنوز مدينة بلقيس تعريب عمر الديراوي١٨٦

(٩) حسين أحمد السياغي -معالم الآثار اليمنية، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء.

(١٠) انظر شيرنسكي أضواء ص١٧ تقرير.

(١١) رونالد ليو كوك، روجر صيدح -تقرير استشاري -لصيانة وترميم الآثار والمواقع الأثرية والتاريخية -طبع مشاتل ص٥٦

(١٢) ميان عبد الحميد تقرير (في مواضع مختلفة منه).

(١٣) رونالد ليكوك وروجر صيدح التقرير الفقرات المتعلقة بالصهاريج.

(١٤) حضرموت القديمة والمعاصرة ج١، ص٥٧ تقارير البعثة اليمنية السوفيتية المشتركة (المستوطنات الأثرية في ريبون) آدام اكوبيان -محمد بامخرمه، يوري فيتوقراف.

(١٥) حضرموت القديمة والمعاصرة١ -مستوطنة قنا.

(١٦) شيرنسكي -أضواء٢٢

(١٧) حضرموت القديمة والمعاصرة تقارير١ - ص١٠

من تاريخ جزيرة صيرة التاريخية

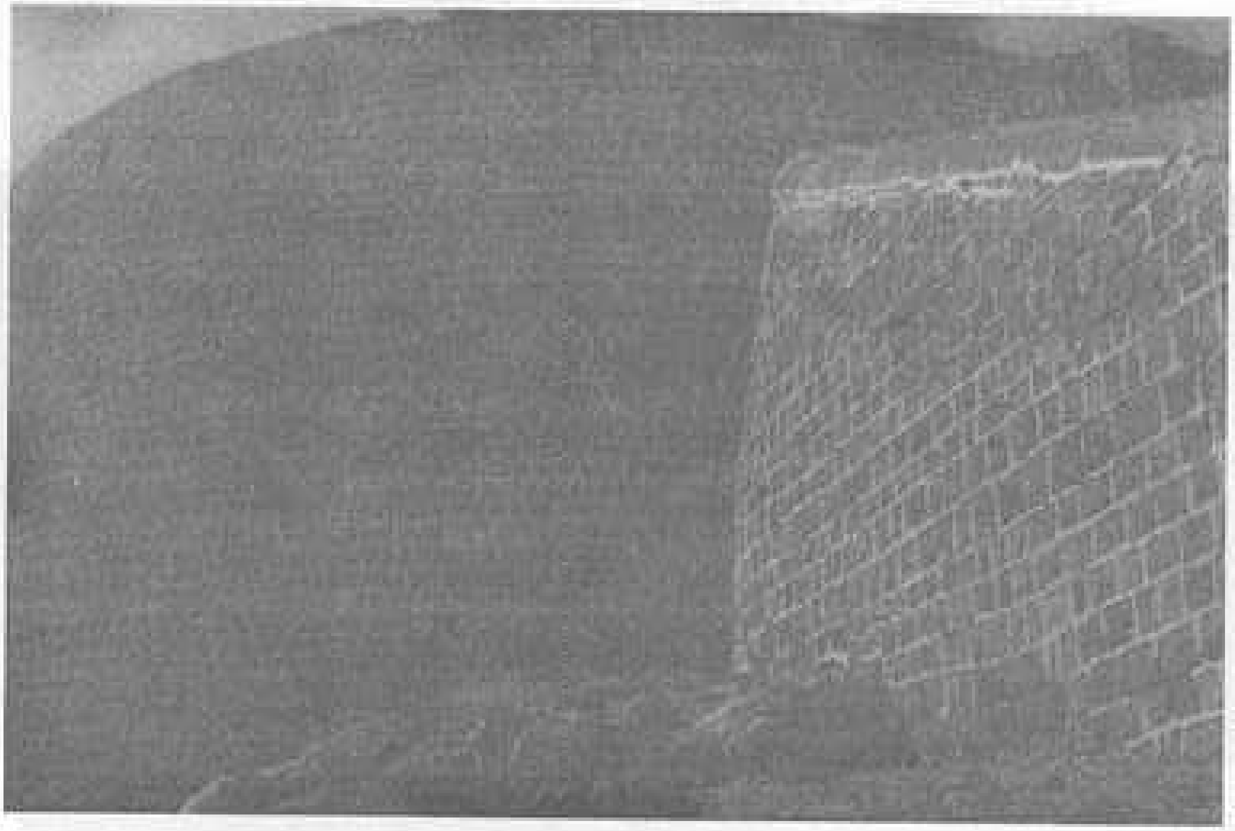

قلعة صيرة التاريخية

صيرة لغوياً:

الملاحظ أن المصادر التي وقفنا عليها على شحة مادتها تشير وباختصار إلى تاريخ الجزيرة بصفة عامة باستثناء المصادر الأوروبية، ولكنها على أية حال تنقل تتفاً حرية بالدرس على الرغم من اتفاقها في النقل الصريح من بعضها البعض.

وقد استعنّاً بمعجمات اللغة في تعريف التسمية (صيرة) التي أطلقت على الجزيرة كلها، بما في ذلك القلعة القديمة المندرسة، والتي اختلف الباحثون المحليون في تعريفها، فقد ذكر صاحب تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية[1] -وله قصب السبق في تناول هذه الموضوعات- ثلاثة حلول للتسمية:

١- إن المستعمرين البرتغاليين أطلقوا اسم سيرا ومعناها جبل على هذه البقعة.

٢- إن الهنود كانوا يسمون عدن سيراسيت، ولعلها إشارة إلى أسطورة رأس

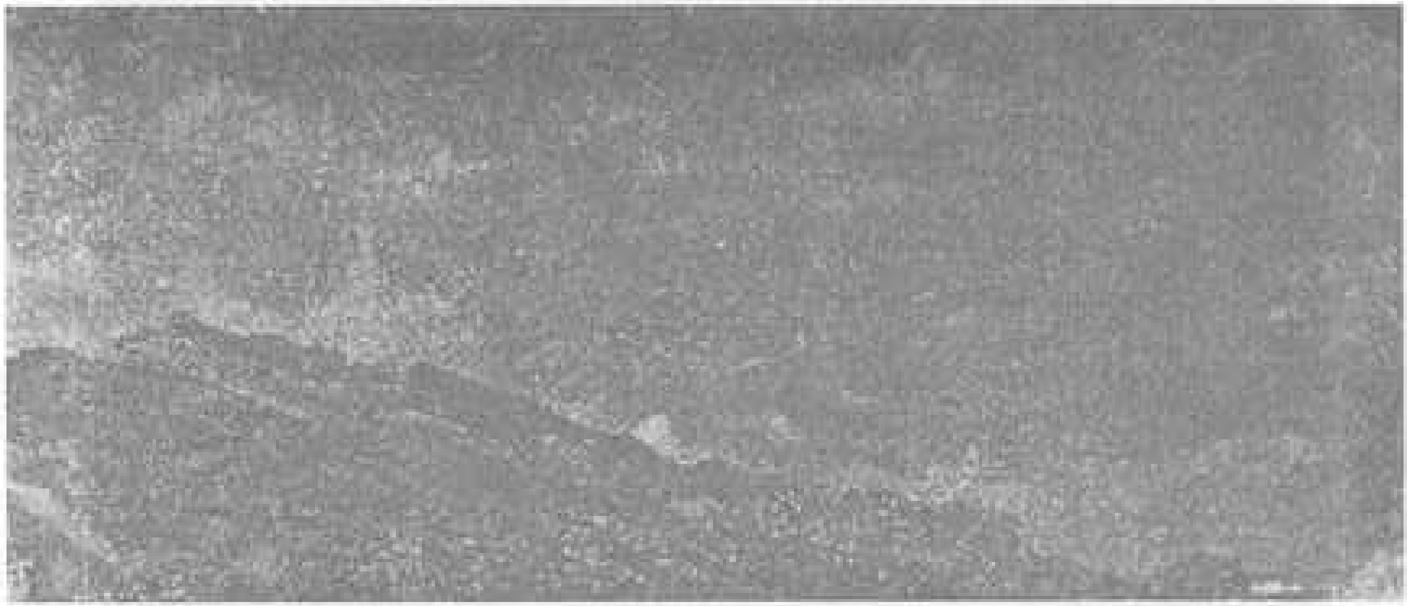

جزء من جبل الخضراء بعدن

الجني راون الذي يسكن السلسلة الجبلية الممتدة من جبل الخضراء (إلى جبل التعكر (حديد)[٢].

٣- إن صبرة في العربية تعني السمك الصغير، أو السردين، أو الشقوق والكهوف.

ويعقب الباحث على ذلك بقوله إن بحر صيرة مليء (بالعيدة) وبالشقوق والكهوف أيضاً. ثم يخلص إلى القول إن هذا هو الحل الصحيح للتسمية.

ويبدو أنه التبس عليه الأمر فانتزع لفظة صيرة من المعجمات وأطلقها دون رويّة وإمعان على نوع من السمك يوجد في سواحلنا نسميه (العيده) أو (العيد)، ومن مواطنه ساحل الشحر. وقد أكد لي بعض الصيادين الماهرين أن نوعاً آخر من السمك نسميه (الليّة) هو كثير الشبه بالعيدة ينتشر في جزيرة صيرة ولكنه أصغر

حجماً من العيدة.

وعندما رجعنا إلى هذه المعجمات العامة والمتخصصة تبين لنا أن لفظة صير بالمعنى الذي وقف عليه الباحث تعني:

أولاً - الصحناءة أو الصحناة، وقد أطلقها أحمد تيمور وحده[٣] على السمك المملح المعلب المعروف بالسردين وليس على السمك في حالته الطبيعية.

ثانياً - إن الصير بمعنى الشق لانطلقها على الشقوق والكهوف البحرية فيما نعلم، فقد ورد في الحديث النبوي: «إنه من نظر في صير باب وفقئت عينه فهي هدر»[٤]. ووردت بهذا المعنى في كل المعجمات[٥]، بيد أنه يجدر بنا أن نشير إلى معان أخرى للتسمية وردت في معاجم مختلفة هي أقرب إلى الصحة فيما نظن، فمثلا ذكر ياقوت في معجمه[٦] «إن صيرة بالكسر هي حظيرة تُعمل للغنم من

قلعة صيرة التاريخية

حجارة، وقد تبنى من خشب أو أغصان كما يقول أحمد رضا[٧]. والمعروف فيما يذكر المؤرخون أن أهل عدن كانوا يأخذون في القرون الماضية سبعة ثيران ويلجبون

الجهة الخلفية لميناء صيرة التاريخي

جانب من ميناء عدن القديم

بها إلى جبل صيرة حيث تبقى هناك حتى مطلع الفجر فيذبحون واحداً منها على سبيل التضحية، فلعلهم كانوا يحفظون هذه الثيران في حظيرة يطلقون عليها صيرة. ويسمي المؤرخ بامخرمه هذه العادة ضحية الجبل(٨). ويقول إنهم يقدمون ذلك قرباناً للأرواح الشريرة التي تعبث على حد زعمهم بأمواج البحر وتعرقل سير السفن. والحقيقة أن الرياح الموسمية التي تهب في موسم الشتاء هي التي تبعث على تعثر السفن في شواطئ صيرة.

ويذكر صديقنا الفاضل الأستاذ المؤرخ البحري حسن صالح شهاب أن ثمة مواضع وجزر تسمى بالصير منها صير أبو نعير، وهي جزيرة بين دبي وجزيرة داس، وصير بني ياس، وهي قريبة من ساحل أبو ظبي، وصيروت وهي بندر على ساحل إيران(٩). ويعلل التسمية تعليلاً أقرب إلى الصواب إذ يقول إن لفظة صيرة مصطلح بحري للصخرة، فالبحارة حينما يرسون في مرسى فيه صخرة أو جبيل يقولون: «هذا مرسى فيه صيرة». وصارة الجبل عند البكري(١٠) رأسه. ونحن نميل إلى الأخذ بهذا التعليل لكثرة ورود مثل هذه المصطلحات في المصنفات البحرية واختفائها في

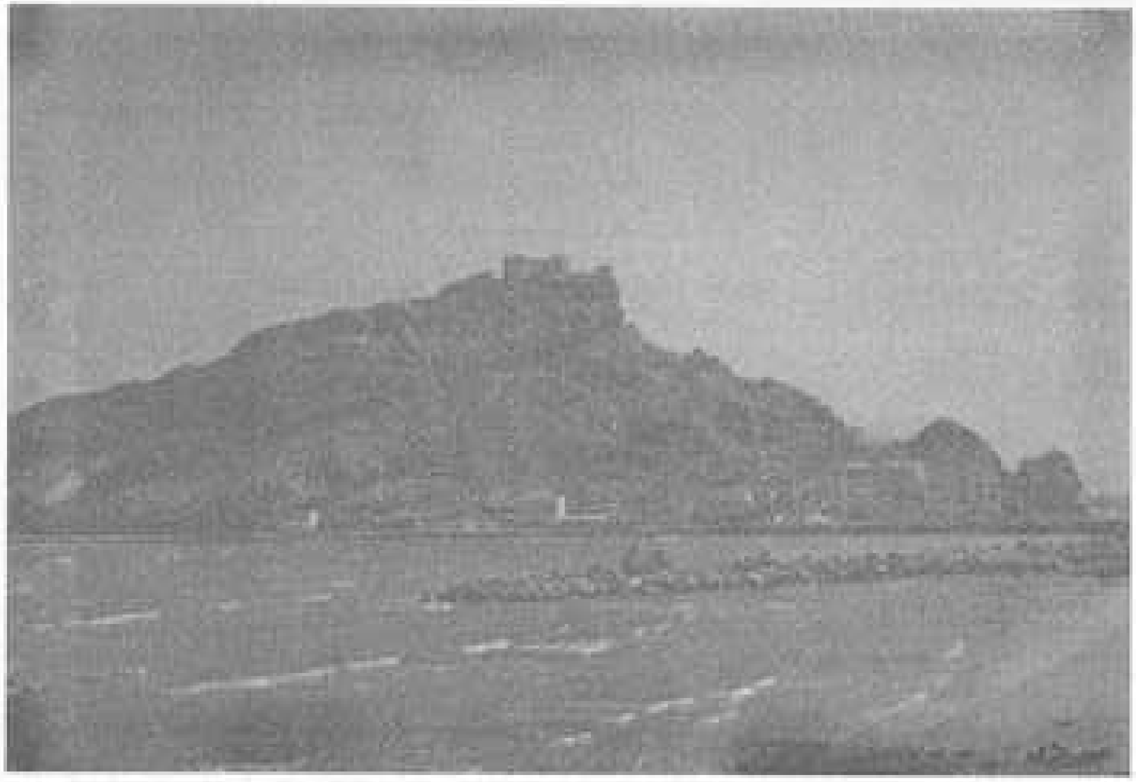

جزيرة صيرة التاريخية

المعجمات. ويعزو أحمد رضا هذه اللفظة في معنى من معانيها إلى عاد وإرم[11]، وهذا مايؤكد جذورها في اللهجات اليمنية القديمة المندثرة، إلا أنه يعوزنا الدليل العلمي الصريح في هذا الصدد.

جزيرة صيرة والميناء القديم:

إن هذا الاستنتاج الذي توصلنا إليه من خلال دراسة اللفظة صيرة يؤكد بما لايدع مجالاً للشك أن البحارة الأقدمين كانوا يطلقون التسمية على المراسي الجبلية، أو بالأحرى المراسي التي تقف على سفحها التلال، أو الجبال الصغيرة، أو كما يسميها الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ (الضلع) أو (القرن)[12]، وفي جزيرة صيرة الواقعة في الخليج الأمامي بمدينة عدن يقع أحد هذه المراسي القديمة متوسداً ضفاف البحر ويقف على عتبته جبيل شامخ هو المعروف بجبل صيرة.

ويبدو واضحاً أن هذا الموضع يعد من أهم المنافذ التي تُفضي إلى قلب المدينة -إن لم يكن الوحيد- وتحتفظ مياهه بثروات معدنية منها معادن اللؤلؤ كما يقول

بقايا مآثر تاريخية على مقربة من قلعة صيرة التاريخية

الكرخي المتوفى في أواخر القرن الرابع[١٣]، وقد شهد هذا الموضع معارك دامية خاضها اليمانيون ضد كل أنواع القرصنة بدءاً بحروب إرياط مع ذي نواس الحميري على مايذكر الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ[١٤] وانتهاء بالمستعمرين البريطانيين بقيادة القرصان هنس.

وكان مرفأ تجارياً هاماً يستقبل السفن الهندية من مختلف المقاطعات[١٥]، والسفن الصينية والفارسية والعمانية والمصرية والحجازية والحبشية[١٦]. هذا إلى جانب السفن اليمنية الراسية في الميناء والتي يمتلكها بعض أهالي عدن الموسرين[١٧].

مدينة عدن في القرن التاسع عشر الميلادي

وكانت تستودع فيه مختلف المنتجات العالمية التي تُنقل بعد ذلك إلى مرافئ أخرى على سفن صغيرة تمخر عباب مضيق باب المندب(١٨). ويقدر ابن المجاور عدد السفن التي ترسو في الميناء بثمانين أو سبعين سفينة كل عام[١٩]. ويصف نشاطه التجاري فيقول: والفرضة كالمحشر فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد[٢٠].

نظام مراقبة السفن:

وقد استُحدث في هذه الفترة نظام مراقبة السفن القادمة إلى الميناء، وهو نظام جد بدائي، نستطيع أن نطلق عليه الفنار البدائي، يقوم به عدد من الحراس، يقفون على قمتي جبل المنظر والخضراء[٢١]، ويراقبون قدوم السفن وهم يتمكنون بحكم الخبرة والممارسة من مشاهدة السفن عن طريق عصي يركزونها على قمة الجبل

وينظرون من طرفها الأعلى إلى الشيء المنظور، فإذا كانت حركته في جهات عدة تبين لهم أنه مجرد طائر، أما إذا كانت الحركة بطيئة فيتيقنون أنها حركة سفينة قادمة إلى المرسى، فيصرخ الحارس[٢٢] هيريا، ويرددها الآخر، وهكذا دواليك حتى يسمع الحارس الذي يقف على مقربة من الفرضة فيذهب إلى الوالي يخبره بقدوم سفينة[٢٣]. ثم يأتي الوالي والمفتشون يسألون عن نوع البضائع وعدد الركاب والبحارة والجهة التي قدمت منها السفينة، «وربما انتزعوا أشرعتها ليتأكدوا من أنها لن ترحل قبل تأدية الضريبة»، كما تقول جاكلين بيرن[٢٤].

نظام التفتيش:

كما استحدث نظامان آخران، أحدهما نظام تفتيش الركاب والبضائع، والآخر نظام الضرائب أو العشور، ولعل كليهما استحدثا في عصر بني زريع.

وهناك موظفان اثنان يقومان بتفتيش الركاب أحدهما رجل يفتش كل أجزاء الجسم بما في ذلك (إليتي الرجل)[٢٥]، وامرأة عجوز تفتش النساء وتضرب بيدها في أعجازهن وفروجهن كما يقول المؤرخ بامخرمه[٢٦]. أما البضائع والأقمشة فتظل في الفرضة أياماً ثلاثة تتعرض لتفتيش دقيق، ثم تُدفع إلى أصحابها بعد أخذ العشور. والتفتيش في مثل هذه الأحوال إجراء وقائي يحد من تسرب الممنوعات والمحظورات إلى المدينة، بيد أننا لم نقف على نموذج من هذه المحظورات في المصادر التي بين أيدينا، ولاشك أن أهم الممنوعات غير المرخص بها رسمياً هي الذهب والسلاح وخلافه.

أما بالنسبة إلى نظام الضرائب والعشور فقد استُجد في عصر بني زريع، وكان يتأرجح من حيث تحديد الضريبة بين الارتفاع والانخفاض والاضطراب والشذوذ في بعض الأحيان، فقد تفرض ضرائب باهظة على بضائع معينة كالعود[٢٧]، والكافور، إذ يدفع التاجر على الفراسلة الواحدة من الكافور خمسة وعشرين ديناراً وعلى بهار[٢٨] الطباشير أحد وعشرين ديناراً، وعلى بهار الفلفل ثمانية دنانير، وديناراً ضريبة جمركية على السفينة، ودينارين آخرين عند خروجه على الفرضة[٢٩]. وتعفى بضائع أخرى من الضريبة كالحنطة والدقيق والسكر والأرز

والصابون وزيت الزيتون والعسل والتيوس والماعز[٣٠] والسمك المملح إن كان بلا رأس[٣١]. وهذه البضائع جميعها هي القادمة من مصر والهند كما يقول ابن المجاور[٣٢]. والطريف في الأمر أن الضرائب لاتُفرض على الجواري الحسان والعبيد الغلمان إذا كانت أعينهم واسعة[٣٣]. وقد يحدث هذا كله في حضور حاكم المدينة والولاة[٣٤]. إذ يذكر بامخرمه أن حاكم عدن عمران بن محمد بن سبأ كان يحضر في الميناء أثناء العشور.

وقد قيل إن يهودياً اسمه خلف النهاوندي هو الذي حدد هذه الضرائب، ولعل الدولة الزريعية وضعتها بعد ذلك قيد التنفيذ مباشرة[٣٥]. والمعروف أن اليهود ذوو خبرة واسعة في هذا المجال، وكانوا ينتشرون في مدينة عدن، ولهم أحياء خاصة[٣٦].

وقد لاحظ الرحالة الأوربيون الأقدمون والمحدثون هذا النشاط الكبير للمرفأ، ومنهم من قدم إلى عدن للتجسس فقط على أحوالها الاقتصادية والسياسية والتحقق من إمكانية الوصول إلى مرافئها والعبور عبر مضايقها بحثاً عن مناطق نفوذ أكبر في العالم، إذ أشارت جاكلين بيرن في مؤلفها اكتشاف جزيرة العرب إلى واحد من هؤلاء القراصنة هو (بدرو دي كوفيلها)[٣٧] الذي بعثه المستعمرون البرتغاليون إلى شبه الجزيرة العربية عام ١٤٨٧م. وقدم إلى عدن في العام نفسه ووصف مرفأها وصفاً دقيقاً[٣٨]. وسبقه بزمن طويل الرحالة الإيطالي ماركو بولو وسجل ملاحظاته التي لم نقف عليها[٣٩].

نظام حماية السفن:

واستحدث في عدن في العصر الأيوبي نظام هو أشبه بأنظمة حماية السفن في عرض البحر، ولكن مقابل ضريبة يدفعها ملاك السفن ارتفعت بعد سنة ثلاث عشرة وست مئة[٤٠]. ولعل السبب في ارتفاعها يكمن في ضعف السياسة الاقتصادية في البلاد في عهد الأيوبيين، ورغبة بعض ولاتهم المتزايدة في استنزاف خيرات اليمن، وذلك عن طريق القوانين الجائرة التي فرضوها على الأهالي وملاك السفن. ذكر ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤هـ في رحلته أن عثمان الزنجبيلي والي عدن من قبل الأيوبيين

نهب أموالاً وذخائر عظيمة من عدن وفر إلى مصر، ووصفه بسوء السيرة مع التجار والأهالي إذ «كانت المنافع التجارية كلها راجعة إليه، والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة إلى يديه، فاكتسب سحتاً عظيماً وحصل على كنوز قارونية على حد تعبيره»(٤١). وقد تمكنت سفن الحراسة الليلية من تعقبه ومصادرة بعض هذه الأموال. والملاحظ أن الجزيرة كانت خالية قبل هذا الإجراء من سفن الحراسة الليلية في العصر الزريعي، وربما كانت غير محصنة ومسوّرة إذ يورد ابن المجاور قصة المركب المغربي الذي أرسى في الميناء، وتوجه صاحبه خفية إلى بيت الداعي، ولعله عمران، أو محمد بن سبأ دون علم بهما. وأخفى بضاعته في منزل أحدهما، والظاهر أن هذا المنزل كان على مقربة من المرسى أو على جبل المنظر، ثم لما أسفر الصبح تأكد التاجر أنه في منزل الوالي. وعفا عنه الوالي كما يذكر ابن المجاور، ولكنه انتبه لهذا الأمر بتشييد أول سور لمدينة عدن يمتد من الجبل الأخضر إلى جبل حقات. وقد تهدم هذا السور لضعفه فابتنى آخر ظل إلى عهد عثمان الزنجيلي سالف الذكر الذي قام هو الآخر بتجديده. ويبدو أنه حصن المدينة تحصيناً قوياً(٤٢)، فعندما زارها دي بارثيما البرتغالي حوالي سنة ١٥٠٨م أدهشته تحصيناتها القوية، وأسوارها الممتدة على السلسلة الجبلية المحاطة بها(٤٣). ويبدو أنه لولا هذه التحصينات، إضافة إلى القدرة القتالية لدى المدافعين اليمنيين لاستطاع ألفونسو دي البوكرك من الاستيلاء عليها(٤٤).

قلعة صيرة:

وتقف على عتبات الجزيرة (صخرة) عملاقة قبالة جبل المنظر(٤٥) هي ما نطلق عليها اليوم جبل صيرة، وعلى ذروتها قلعة ترجع في تقديرات العالم السوفيتي سيرجي شيرنسكي إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، غير أنها مغطاة اليوم بتشييدات لاحقة كما أشار الخبير في تقريره العلمي المقدم إلى المركز اليمني للأبحاث الثقافية(٤٦).

والجدير بالذكر أن شيرنسكي قام بمسح ميداني للموقع وألمح إلى إمكانية دراسة تكوينه العمراني وسبر أغواره. وأكد أن الموقع كان مأوى طيباً للناس وحماية

للميناء من قراصنة البحار والغزو الخارجي[٤٧]. ولم يأت بتفصيلات أخرى تتعلق بالتشييدات القديمة للقلعة المندثرة، والفترة الزمنية للتشييدات المستحدثة التي نراها اليوم. وقد قمت في السادس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٨٤م بزيارة لمعاينة

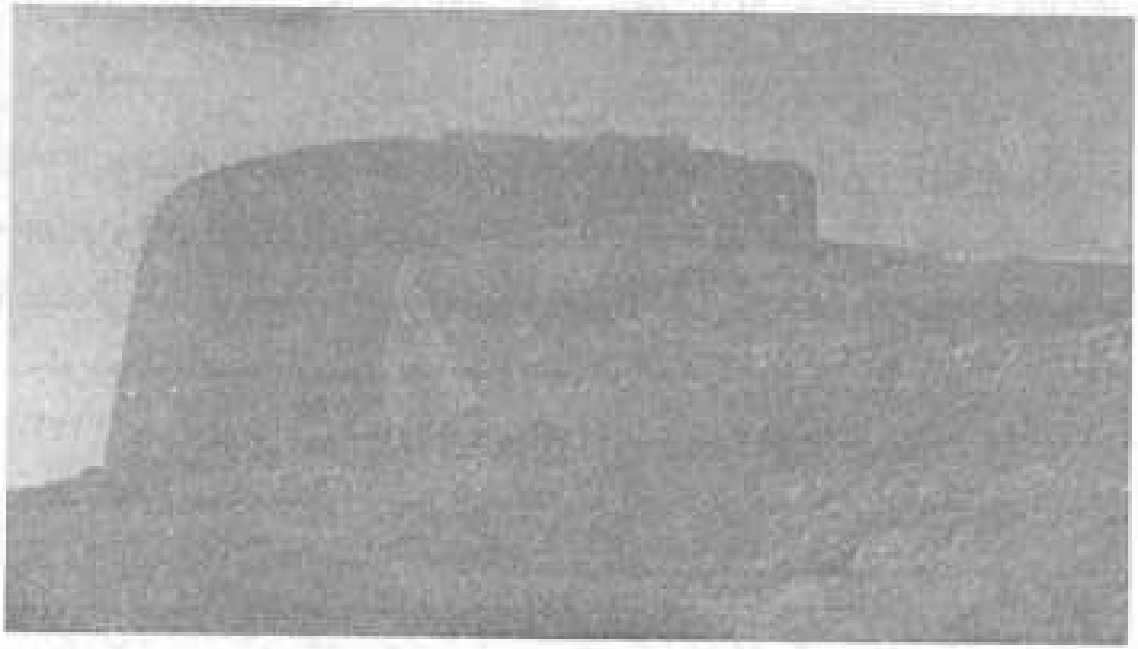

الموقع عن كثب برفقة صديقنا الفاضل الأستاذ يوسف حسن السعيدي، تبين لي من خلالها أن بناتها اختاروا لها موقعاً استراتيجياً هاماً على ذروة الجبل يدل على قدرات أسلافنا اليمانيين الفائقة وقوة شكيمتهم، وتضحياتهم في سبيل الذود عن الأرض الطيبة. وشاهدت مدافع كادت عوامل التعرية أن تطمرها، وهي تدل على أن القلعة شهدت معارك حاسمة ضد الغزاة والقراصنة، وتعرضت غير مرة للتدمير، وقامت حكومات عدن في العصور الوسطى بترميمها وإعادة بنائها. ويبدو أنها لم تدمَّر بعد ذلك، وإن زعمت بعض المصادر البريطانية أن السفن البريطانية التي هاجمت مدينة عدن دمرت القلعة بما فيها من المدافع[٤٨].

وعلى مسافة قصيرة من القلعة تقوم أطلال مبنى شبيه بالثكنة العسكرية يحتضن مدافع مطمورة ويفضي إلى واد أو مسيل صغير لعل لعوامل التعرية

والسيول يد في شقه، فمن المحتمل أن يكون هو هدف السفن البريطانية. وإذا ماصحت مزاعم هارولد ف في هذا الصدد فمن المستبعد أن تعيد السلطات البريطانية بناء القلعة وبالطرائق القديمة في البناء. أما الحصن الصغير الذي يقف على مقربة من القلعة؛ والذي نشاهده من أي موضع فسيح في المدينة، فقد شيده المستعمرون البريطانيون في وقت متأخر في أغلب الظن. وهو يختلف اختلافاً بيناً من حيث بنائه عن القلعة.

وتعوزنا الأدلة في تحديد فترة بناء القلعة، والحكومة أو الجهة التي مولت العمل، إذ لم تسعفنا المصادر على قلتها بذلك، ولكنها أشارت إلى حصون مختلفة بنيت في هذا الموضع ومواضع أخرى من الجزيرة لعل من المفيد الإشارة إليها. فقد ذكرت هذه المصادر أن آل زريع حكام عدن في الفترة مابين ٤٧٠- ٥٦٩هـ ١٠٧٧- ١١٧٣م هم أول من بنى الدور الحجر التي كانت موادها تجلب من أبين، وشيدوا بعض أسوار مدينة عدن. وليس من المستبعد أن تكون لهم يد في بناء القلعة، ولكن هذه الروايات تؤكد من ناحية أخرى أن بيوت عدن في تلك الحقبة كانت مصنوعة من الخوص والقصب حتى أسوار المدينة نفسها لم تكن في عهدهم إلا من هذه المواد، ولهذا سرعان ماتهدمت[٤٩]، ثم جاء الأيوبيون ٥٦٩- ٦٢٦هـ ١١٧٣- ١٢٢٩م وجددوا الأسوار وأحكموا تحصينات المدينة، فلعلهم بنوا القلعة أو جددوها. وتزعم روايات أخرى أن الأقدمين بنوا (شصنه) خلف مرسى المراكب من جهة البحر[٥٠]، هدمت في عصر بني طاهر ٨٥٨- ٩٣٣- ٤٥٤- ١٦٢٦م، وبني عوضاً عنها (دار البندر)، ثم هدمت هذه الدار أيضاً سنة ٩١٩هـ، وبني بدلاً عنها الحصن الذي في طرف جبل صيرة[٥١]. فلعل دي بارثيما سالف الذكر شاهد هذا الحصن أثناء زيارته لعدن عام ١٥٠٨م، ولم يشر المقدسي الى هذا الموضع، ولا إلى القلعة، وإن ذكر الموضع الذي يخرج منه النار، والمتبادر أنه استقى هذه المعلومة من مصنفات المؤرخين اليمانيين.

كما بنيت حصون أخرى على الجبال بناها قوم يطلق عليهم ابن المجاور (أهل القمر)[٥٣]. ويضيف أن بناءهم باق بالحجر والجص ملء تلك الأودية والجبال[٥٤].

وجملة القول إن هذه المصادر التي وقفنا عليها لم تفصح عن زمن بناء القلعة والتشييدات الأخرى المستحدثة عليها، وإن كنا نرجح ترجيحاً لا نقيم عليه برهاناً ولا دليلاً قاطعاً أن القلعة القديمة ترجع إلى تشييدات القرن الثاني عشر الميلادي، أي أننا نضعها ضمن مآثر الأيوبيين في اليمن، أما القلعة الحديثة، أو بالأحرى التشييدات المضافة إليها فقد بُنيت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

وكيفما كان الحال فقد دعا بعض الخبراء الاختصاصيين الذين زاروا الموقع إلى ضرورة إجراء الحفريات الأركيولوجية فيه سعياً وراء معرفة الزمن التاريخي الدقيق للتشييدات القديمة التي طرأت عليها تغيرات شاملة. وهي الوسيلة الوحيدة فيما نعلم التي سوف تعطينا دليلاً قاطعاً نعول عليه في تحديد هذه الفترة الزمنية تحديداً لا يتسرب إليه الشك البتة.

القلعة بين الميثولوجيا والإخباريات المروية:

والواقع أن تاريخ القلعة مشوب بالأسطورة الوافدة من الخارج، هندية كانت تلك الأسطورة أم مسيحية. ولعل هذا التعتيم الذي لمسناه في سياق الروايات المختلفة التي ساقها مؤرخو القلعة يعود في تقديرنا إلى عبث الأسطورة. ومما لا شك فيه أن الصبغة الأسطورية وصلت إلينا من خلال احتكاكنا المباشر بالحضارات المختلفة، وعلى الأخص الحضارة الهندية التي تغلب الأسطورة على نماذجها الحضارية. وقد ألمحنا إلى ذلك تلميحاً في معرض حديثنا عن ميناء عدن القديم حيث قلنا إجمالاً، إن الميناء كان مرسى منذ زمن بعيد للسفن القادمة من كل المقاطعات والأصقاع الهندية(٥٦). وبديه أن نتأثر بهذه النماذج الحضارية الوافدة ذات الأنماط المختلفة، وقد امتد هذا التأثير إلى حياتنا المعاصرة، ولكن في أشكال ومظاهر أخرى، منها ما يتعلق بالفن، ومنها ما يتعلق بالظواهر اللغوية التي تكاد اليوم تمحي وتتلاشى.

ومهما يك من شيء فقد غدت صيرة مرتعاً خصباً ومأوى حسناً للأساطير على مختلف أشكالها هندية وإسلامية ومسيحية. وعزا بعض الباحثين ذلك إلى أن مدينة عدن كانت في الأزمنة القديمة تتكون من أخدود بركاني هائل ألفت حوله هذه

الأساطير[٥٧]. بيد أن الأسطورة الهندية على وجه الخصوص حظيت بأهمية خاصة لدى مؤرخي القلعة، حيث حملت إلينا على بساطها الجني ذي الرؤوس العشرة، والغزال درسير الذي وفد على جبل المنظر[٥٨]، وأحسن المنظر وفادته، وهنومت[٥٩] أو هانومان الإله القرد[٦٠] الذي حفر سرباً في ليلة واحدة من الهند إلى جبل صيرة، وأعاد زوجة رام جندر[٦١] إلى أوجين بكرمي بالهند، وسلمها إلى زوجها قبل انفجار الفجر الصادق على حد تعبير بامخرمه[٦٢]. وهي فيما يظهر إمرأة حسناء شغف بها حباً عفريت آخر واختطفها وسار بها إلى جبل صيرة، ولحق به هنومت وقد استحال هذا السرب الذي حفر في ليلة واحدة إلى بئر مرعبة ذات نيران متوهجة، يطلق عليها المؤرخون تارة (انبار) أو في (بر) وتارة أخرى (بئر الهرامسة). وهي فيما يروي الحديث النبوي أنه يخرج منها يوم القيامة نار تسوق الخلق إلى المحشر[٦٣]. وتناثرت حولها الحجارة المكسرات والأفاعي النائمات والحيات القائمات كما يقول بامخرمه[٦٤]. ويروى -والعهدة على الراوي- أن العلامة ابن كبن[٦٥] المتوفى سنة ٨٤٢هـ زارها وأدلى بحبل إلى قعرها ثم رفعه فإذا بطرفه محروق، وظلت النيران متوهجة في هذه البئر حتى أطفأها القديس (بارثلوميو) حسب ما تروي الأسطورة المسيحية.

القلعة بين الميثولوجيا والإخباريات المروية:

والجدير بالذكر أن رواة هذه الأسطورة يختلفون في موضع البئر، فمن قائل إنها على ذروة جبل صيرة ومن قائل إنها في حارة الزعفران بعدن، بيد أن هذه البئر الأخيرة تمتاز بعذوبة مياهها، حتى أن أهل عدن كانوا يصنعون منه النبيذ الجيد. وكما تختلف الآراء في هذا الصدد، فهي أيضاً تتناقض تناقضاً ملحوظاً، إذ يزعم الرواة أن البئرين معاً يستخدمان للشرب على الرغم من وهيجهما[٦٦].

أما الأسطورة الإسلامية فقد أوفدت قابيل وإقليمه إلى جبل حديد فارين من أبيهما آدم حيث دفنا هناك هابيل، ثم أغراهما الشيطان بعبادة النار وابتنى لهما معبداً في ذروة الجبل[٦٧]، وما لبث أن داهم السلسلة الجبلية وأخرج ساكنيها من الجن والعفاريت إلى غير رجعة.

اعتقادات قديمة حول القلعة:

وعلقت في الأذهان اعتقادات أخرى هي امتداد طبيعي للأساطير من ذلك (عادة النشوح)، أو (ضحية الجبل) إذ يصعد القوم بسبعة ثيران إلى القلعة ويربطون واحداً منها وتبقى حتى منتصف الليل ثم ترد إلى المدينة، وعند انبلاج الفجر يعود القوم أدراجهم ويذبحون الثور المربوط ويقذفون بأشلائه حول القلعة اعتقاداً منهم بأن السفن التي تعرقل سيرها في عرض البحر بسبب الرياح الموسمية سوف تمخر العباب. وظلت هذه العادة حتى عصر بني زريع[٦٨]، وهي تذكرنا بمثيلات لها في العالم، ففي مصر القديمة كان الأهالي يقدمون الفتيات الحسان الأبكار قرباناً للنيل عند فيضانه، وفي الهند ينذر المزارعون للمعبود الصنم دم واحد من المواطنين السذج يرشون به أصول قصب السكر إذا جاء المحصول جيداً ووفيراً[٦٩].

صفحة من تاريخ صيرة الكفاحي:

لقد شهدت قلعة صيرة معارك حاسمة خاضها الشعب اليمني ضد الغزاة المستعمرين الذين كانوا يجوبون الشواطئ اليمنية ويعيثون فيها فساداً، بدءاً بالغزو الروماني في عهد القيصر كلوديوس، وانتهاء بالغزو الاستعماري. فقد أخرب المستعمرون الرومان ميناء عدن الرئيسي الذي يقع في سفح القلعة ويمتد من طرف جبل صيرة وحتى معامل تكرير المياه سابقاً، إذ ذكر المؤرخ المجهول صاحب كتاب (الطواف حول البحر الإرتيري) أن حادثة تخريب الميناء وقعت قبل قدومه إلى عدن بزمن قصير، وكان يحكمها آنذاك ذو الأذعار الحميري وابنه شرحبيل. والجدير بالإشارة أن هذا الميناء يُعد من أهم وأشهر الموانئ التجارية في جنوب بلاد العرب، ليس هذا فحسب، بل ومن أهم الموانئ الحربية أيضاً في البحر الأحمر، وكانت هذه القلعة بمثابة الحارس الأمين له.

لهذا فقد انتبه المستعمرون بمختلف نحلهم ومذاهبهم إلى أهمية الموقع وضرورة الاستيلاء عليه. وكانوا يشنون الغارة تلو الأخرى على المدينة، غير أن حامية صيرة كانت ترد الصاع صاعين.

في الأعوام ٨٩٢- ٩٠٩- ٩١٠هـ كانت السفن البرتغالية الاستعمارية تجوب الشواطئ اليمنية، وفي عام ٩١٩هـ ١٥١٣م هاجم البرتغاليون مدينة عدن، وتصدت جماهير الشعب والقوات الطاهرية اليمنية للعدو، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها عدد من الجنود البرتغاليين، وقد تضررت أحياء المدينة وتهدمت بعض بيوتها كحافة القطيع، ولكن الجماهير أبلت بلاء حسناً في المعركة، وأجبرت الأعداء على الانسحاب. وقد شعر الإرهابي الفونسو ديلبوكيرك بالهزيمة فأمر جنوده بالعودة إلى السفن، وقد تملكه الغيظ فأحرق السفن اليمنية الراسية على الشاطئ. وأشار المؤرخ بافقيه الشحري في تاريخه المخطوط إلى الحادثة في حوادث عام ٩٢٢هـ، وذكر من الشهداء الذين سقطوا في ساحة المعركة (عمر بن موسى المجدي، أو المجيدي)، وكان ممن أبلى وأحسن بلاءه على حد تعبيره.

لقد أجمعت المصادر التي وقفنا عليها على أن المقاتلين كانوا يمتلكون قدرة فائقة في العدة والعتاد، وكانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً بفضل تجهيزات القائد اليمني مرجان الظافري الذي شارك بنفسه في المعارك. وما يؤكد ذلك ماذكره ابن الديبع في كتابه (الفضل المزيد) من أن الأمير مرجان أبرز لحسين الكردي، قائد الجيوش الاستعمارية المملوكية من آلة القتال وعدة الحرب مابهره(خ)، كما كانت المدافع اليمنية تطلق حممها وبكثافة من جبل صيرة مما أجبر الأعداء على الفرار على الرغم من قوة تجهيزاتهم وحداثة أسلحتهم. ولهذا فالمواجهة اليمنية للبرتغاليين لم تكن ضعيفة على نحو ماقال الدكتور محمد عيسى صالحية في مقدمة كتاب (الفضل المزيد) لابن الديبع، فقد تمكن هؤلاء المدافعون اليمنيون من صد هجوم القوات البرتغالية وإجبارها على الانسحاب(غ).

كان الجراكسة المماليك حينما يجوبون شواطئ اليمن بحجة الحفاظ على الممالك الإسلامية ومد يد العون لقادتها المسلمين، فقد هاجموا عدن، وجرت بينهم وبين الجماهير الباسلة معركة قتل فيها جمع من المماليك، وكانت القلعة ترسل عليهم وابلاً من حممها، غير أنهم دبروا خطة هي أقرب إلى الخدعة العسكرية، فعندما تبين لهم أن جنود القلعة نزلوا إلى المدينة للمشاركة في الصراع الدائر في جنباتها، تقدموا إلى صيرة في جمع من جنودهم وضربوا المدينة بالمدافع. وكانت مدافعهم كما يقول

بافقيه في تاريخه المخطوط «تقع في أطرف البلد مما يلي شمسان». كما رموا السور بمدافع عظيمة فهدم منه جانب كبير.

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن الجماهير كانت تشارك وبفعالية منقطعة النظير في صد هجمات المماليك، وتتخذ الوسائل الممكنة لصد تقدمهم في المدينة وإجبارهم على التقهقر والانسحاب، بحيث كانت تستخدم السهام كما يذكر صاحب هدية الزمن[٧٣]. وظل اليمنيون في صراع مستمر ومتواصل ضد أشكال الغزو الخارجي كافة، ففي سنة ١٥٣٨م سيطر العثمانيون على اليمن، وتصدت لهم فئات الشعب من الزيود والشوافع على حد سواء، وواجهت قواتهم عنفاً وعنتاً لانظير له، فاضطروا إلى الجلاء من اليمن، ثم طرأت تطورات، وأحداث في العالم العربي واليمني بصفة خاصة هيأت السبل للسيطرة العثمانية الثانية على اليمن عام ١٨٤٩م، ومع ذلك لم يتوقف المد الثوري اليمني، إذ ظل متواصلاً، فنشبت اضطرابات وثورات ضد الوجود العثماني على الرغم من تطور أساليب القوى ذات المشارب المختلفة التواقة إلى السيطرة على الوضع في اليمن.

وظلت هذه القوى تجوب الشواطئ اليمنية متخذة شتى الوسائل والحيل في سبيل الاستيلاء على بلاد الغير، ففي عام ١٨٣٩م تذرع المستعمرون البريطانيون بجبرواه ألا وهو جنوح السفينة داريا دولت على شاطئ عدن وانتهابها، وهي ملك امرأة هندية اسمها بيجم، وتقدم هينس شخصياً بهذه الشكوى إلى السلطات الحاكمة حينذاك في عدن، والتي تواطأت فيما بعد مع الاستعمار البريطاني وقدمت له المدينة لقمة سائغة. غير أن هذه السلطات أنكرت اشتراك رعاياها في نهب السفينة، وقد توعدها هينس وطلب منها إثني عشر ألف دولار، أو إعادة ممتلكات السفينة، فأذعنت لمطالبه، وأعادت له ماقيمته ثلثي الممتلكات أو مايقارب ٧٨٠٨ ريال، على أن تدفع الباقي بعد سنة واحدة. وقد وصف هارولوف يعقوب في كتابه ملوك شبه الجزيرة العربية ممثل هذه السلطة بأنه «أعظم مدمن على نهب حطام السفن، وعلى الأخص في هذا الحادث»[٧٤]. والحقيقة التي لامراء فيها أن المستعمرين لايتخذون هذه الوسائل والحيل سعياً وراء المال فحسب، بل وحباً في السيطرة على أراضي الغير وامتلاك ناصية التجارة العالمية وتحقيق أهدافهم الاستعمارية في المنطقة. لهذا

لم يكتف هينس بالمال، بل أرسل قواته وعتاده الحديث إلى شاطئ عدن، وجرت بينه وبين حامية القلعة معركة غير متكافئة استشهد فيها عدد من المقاتلين اليمنيين في قلب القلعة، كما عاث فساداً في الشاطئ وقتل عدداً من الصيادين، واستولى بعد ذلك على المدينة وأذعنت له السلطة، وعقدت معه عدداً من الاتفاقيات بمقتضاها تمت السيطرة الفعلية على جنوب الوطن اليمني.

وإذا كانت اليمن قد عانت من التجزئة والتفرقة في عصورها الوسيطة؛ فقد بلغت هذه التجزئة أقصاها في جنوب الوطن في العهد الاستعماري، واستقل كل سلطان بمنطقة نفوذه، وتمكن المستعمرون من استخدام سياسة فرق تسد التي أغرقت الشعب اليمني في خضم الاضطرابات والصراعات الدموية.

لجنة إضاءة القلعة:

لقد بات واضحاً مما تقدم أن الأقدمين كانوا يولون أهمية خاصة لهذا الموضع وإن شيبت هذه الأهمية بالصبغة الأسطورية. كما يحظى الموضع اليوم باهتمام المحدثين الذين أدركوا قيمة مآثرنا الحضارية، وضرورة الحفاظ عليها والعناية بها، بعد أن نالوا حظاً من الحضارة، واكتسبوا قسطاً من العلم، فقد توافدت البعثات العلمية إلى اليمن منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي وحتى اليوم، واستقطبت الحكومة وفق خطط التعاون الثقافي والعلمي فيما بينها وبين دول العالم عدداً من الخبراء والاختصاصيين في هذا المجال بغرض دراسة المعالم التاريخية والأثرية، والتنقيب عن مكامن الآثار ومكنوناتها في التربة اليمنية. وقام هؤلاء الخبراء بسلسلة من الدراسات والأبحاث الأكاديمية شملت عدداً من المآثر والمعالم الحضارية بما في ذلك القلعة، ومن هؤلاء العالم سيرجي شيرنسكي سالف الذكر الذي قام في صيف عام ١٩٧٢م بتحقيق علمي للموقع، وخلص إلى القول إنه بالإمكان تحويل الجزيرة والقلعة معاً إلى مكان شيق ومثير على حد تعبيره. ولن يتأتى ذلك كمرحلة أولى إلا بإعادة إضاءة القلعة بشكل دائم لما في ذلك من أهمية تضفي على الموقع رونقاً خلاباً وبديعاً.

وقد تشكلت في صيف عام ١٩٦٩م لجنة أطلق عليها لجنة إضاءة قلعة عدن التاريخية، عقدت أولى اجتماعاتها في ٦أكتوبر عام ١٩٦٩م.

الهوامش

(١) حمزة لقمان -تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص٢٧٩

(٢) عبد الله الطيب بن أحمد بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ٢٨-٢٩

(٣) أحمد رضا -متن اللغة ٣/ ٥١٣، الصحناءة أو الصحناء لفظة أطلقها أحمد تيمور على السمك المملح المعروف بالسردين.

(٤) ياقوت الحموي -معجم البلدان ٣/ ٤٣٨، انظر سنن النسائي -باب الجنائز ١٤

(٥) انظر مثلاً أحمد رضا -متن اللغة ٣/ ٥١٣، والرازي -مختار الصحاح ص٣٧٥

(٦) ياقوت الحموي -معجم البلدان ٣/ ٤٣٨، وذكر عدداً آخر من الصير منها جبل بأجا في ديار طيء فيه كهوف شبه البيوت، وجبل آخر على الساحل بين سيراف وعمان.

(٧) أحمد رضا -متن اللغة ٣/ ٥١٤

(٨) عبد الله الطيب بن أحمد بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ٣

(٩) حسن صالح شهاب -طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي ص٩٣

(١٠) البكري -معجم ما استعجم ٣/ ٨٤٦

(١١) أحمد رضا -متن اللغة ٣/ ٥١٤

(١٢) الثعالبي -فقه اللغة وسر العربية ص٢٩٤

(١٣) الكرخي المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، المسالك والممالك.

(١٤) أبو حنيفة الدينوري -الأخبار الطوال ص٦٣، ويذكر ابن المجاور في تاريخ المستبصر ص١١٦ قوماً ملكوا عدن يسميهم (أهل القمر) ويقول إنهم أخرجوا الصيادين من الجزيرة وسكنوا قمة الجبل الأحمر، ويبدو أنه الجبل الذي يحاذي جبل العر (شمسان)، كما سكنوا حقات وجبل المنظر ولهم فيهما آثار، ويذكر في موضع آخر ص ١٢٤-١٢٦ قوماً آخرين يسميهم الجاشو وملكهم قيس دوانيج، اللذين هاجموا الجزيرة في عهد بني زريع، وقد احتال عليهم آل زريع وفتكوا بهم في موضع يطلق عليه (الجماجم)، ومن المحتمل أن يكون على مقربة من جزيرة صيرة.

(١٥) ياقوت الحموي -معجم البلدان ٨٩-٩٠-٩٤، وابن بطوطة الرحلة ص٢٥١، والقرماني أخبار الدول وآثار الأول ص٣٦٤، وجواد علي المفصل ٧/ ٢٧٣-٢٧٤.

(١٦) شيخ الربوة -نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص٢١٦

(١٧) ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٥١-٢٥٢

(١٨) أحمد صادق سعد -تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي في ضوء النمط الآسيوي للإنتاج ص٢٩١، وانظر البغدادي -مراصد الاطلاع ٢/ ٩٩٣

(١٩) ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص٦٥، وجاكلين بيرين -اكتشاف جزيرة العرب ص٤٨-٥٨، ويرى الأستاذ حسن شهاب أن المراد بالعام هنا الموسم.

(٢٠) ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص١٢٨

(٢١) جبلان معروفان تاريخياً بمدينة عدن، ورد ذكرهما في معظم المصادر، وأتينا على ذكرهما في غير موضع من هذه الدراسة.

(٢٢) هيريا مناداة لعلها تركية الأصل، يطلقها مراقب السفن لزميله الآخر وهي تؤكد وصول سفينة ما إلى الميناء.

(٢٣) ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص١٢٨، وبامخرمه تاريخ ثغر عدن ١/ ٥٦-٥٧، وحمزة لقمان -تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص٢٩٣-٢٩٤

(٢٤) جاكلين بيرين -اكتشاف الجزيرة العربية ص٤٨، وحمزة لقمان -تاريخ عدن ص٢١٥-٢٩٤

(٢٥) عبد الله الطيب بن أحمد بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ٥٨

(٢٦) نفس المصدر ص١/ ٥٨

(٢٧) ذكر ابن المجاور أن إدارة الضرائب الجمركية صادرت كمية من العود الرديء كما يبدو على الناخوذة عثمان بن عمر الآمدي قدر ثمنه بستة دنانير وفرضت عليه ضريبة قدرها خمسة عشر ديناراً. انظر تاريخ المستبصر ص٤٤ وتاريخ ثغر عدن ص٦٤، وتاريخ عدن ص٢٩٩

(٢٨) وقيل إن البهار يساري حمولة جمل، وإنه يتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠، ٦٠٠رطلاً. انظر حمزة لقمان -تاريخ عدن، ص٣٠٠، والمعروف أن الوزن يختلف باختلاف الأمكنة ونوعية وصنف السلعة، ولعل هذه الأوزان المشار إليها في الهامش هي السائدة وقتذاك في ميناء عدن القديم.

(٢٩) بامخرمه -تاريخ ثغر عدن وابن المجاور -تاريخ المستبصر.

(٣٠) بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ٥٨-٥٩-٦٣

(٣١) ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص١٤٣

(٣٢) نفس المصدر ص١٤٣

(٣٣) بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ص٣٠٠

(٣٤) نفس المصدر ص١/ ٥٨-٥٩

(٣٥) نفس المصدر ١/ ٥٨-٥٩

(٣٦) محمد بن عمر بافقيه تاريخ بافقيه الشحري، مخطوطة بمكتبة الأحقاف بتريم ص٥٠

(٣٧) يرد الاسم مختلفاً في كتاب الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية للأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح، إصدار مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية -جامعة الكويت (٤) ١٩٨١م فهو بيتر دي كوبلان أو بيرو دي كوبلا.

(٣٨) جاكلين بيرن -اكتشاف جزيرة العرب ص٤٨

(٣٩) محمد عمر الحبشي -اليمن الجنوبي ص٦

(٤٠) بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ٦١

(٤١) ابن جبير، الرحلة ص١٤٨-١٤٩، وذكر بامخرمه أيضاً مافعله علي بن رسول لما دخل عدن ووصف تلك الأيام بقوله: «وكانت الأيام شبه أيام المحشر كل منهم ينادي أين المفر».

(٤٢) ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص١٢٧-١٢٨، وبامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ١٣ غير أنه يقول: وصل مركب من المقرب أي جهة هرموز فلعله تصحيف مغرب.

(٤٣) جاكلين بيرن -اكتشاف جزيرة العرب ص٤٨

(٤٤) نفس المصدر ص٥٨

(٤٥) بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ٢٩، وهي في الحقيقة جبل أو قرن على حد تعبير علماء اللغة العربية، انظر الثعالبي ص٢٩٤

(٤٦) سيرجي شيرنسكي أضواء على الآثار اليمنية ص١٧

(٤٧) نفس المصدر ص١٧

(٤٨) نفس المصدر ص١٧

(٤٩) ملوك شبه الجزيرة العربية هارولدف يعقوب ص٣٧

(٥٠) بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١/ ٩، ٢/ ١٥١

(٥١) المصدر نفسه ١/ ١٥

(٥٢) المصدر نفسه ١/ ١٦

(٥٣) انظر اكتشاف جزيرة العرب ص٤٨

(٥٤) لعلهم من جزر القمر التي سكنها المهاجرون اليمانيون منذ زمن بعيد.

(٥٥) ابن المجاور ص١١٦

(٥٦) انظر رحلة ابن بطوطة ٢٥١-٢٥٢

(٥٧) الجدير بالملاحظة أن آل طاهر ٨٥٨-٩٣٣هـ فيما يذكر المؤرخون حصنوا مدينة عدن وجددوا أسوارها، وليس من المستبعد أن تكون لهم يد في بناء القلعة والقلاع الأخرى المتناثرة على جبل العر والتي يوضحها الرسم البرتغالي للمدينة عام ١٥١٢م.

(٥٨) حمزة لقمان ص١٨ (أساطير من تاريخ اليمن).

(٥٩) ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص١١٠

(٦٠) المصدر نفسه ص١١١

(٦١) تاريخ عدن ص٢٧٨-٢٧٩

(٦٢) ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص١١٢

(٦٣) تاريخ المستبصر ١١١، بامخرمه -تاريخ ثغر عدن ١٧/١، لقمان -تاريخ عدن ص٢٧٧، أساطير من تاريخ اليمن ص١٨، وملوك شبه الجزيرة العربية ص٣٦٢

(٦٤) تاريخ المستبصر ص١١١

(٦٥) والرواية ينقلها عن طريق السماع، والعلامة ابن كبن هو محمد بن سعيد بن علي بن كبن من علماء عدن الثقاة، توفي في سنة اثنين وأربعين وثمان مئة، انظر ترجمته في طبقات صلحاء اليمن للبريهي تحقيق الحبشي ص٣٣٠، وبامخرمه ٢٥٦/٢، وأساطير ص١٨، وتفصيل الأسطورة المسيحية في (أساطير) ص١٨، وتاريخ عدن ص٢٧٨-٢٧٩

(٦٦) ابن المجاور، المستبصر ص١٣١

(٦٧) أشار المقدسي إلى الموضع ولم يحدده، وقال ما معناه (أن يخرج منه النار. انظر أحسن التقاسيم ص١٠٢).

(٦٨) تاريخ عدن ص٢٧٧

(٦٩) ابن المجاور، المستبصر ص١١٤، وتاريخ عدن ص٢٨٠، وأساطير ص١٩

منارة عدن التاريخية

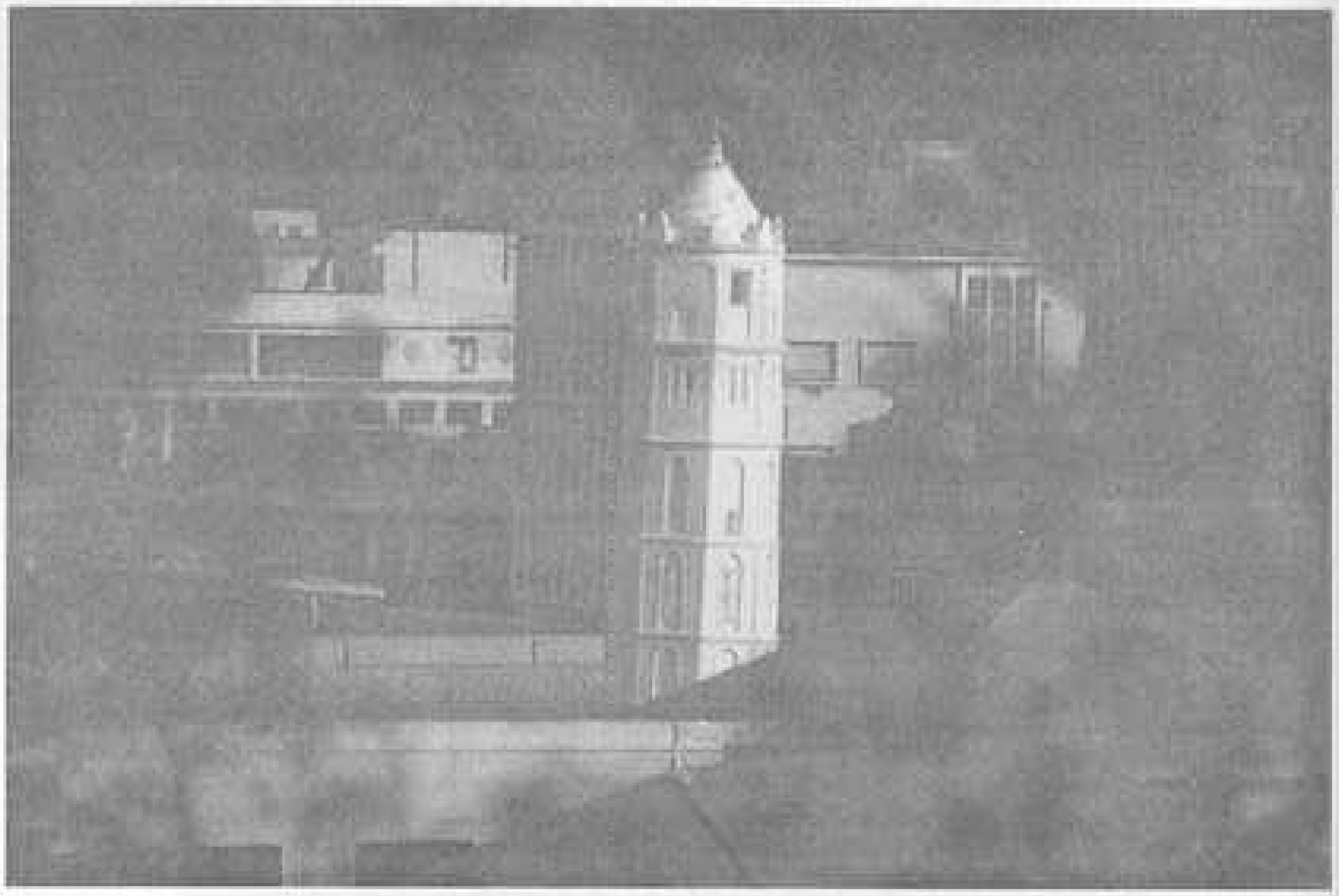

يبدو واضحاً من خلال دراسة المصادر الخطية التي وقفنا عليها أن ثمة عدداً كبيراً من المساجد كان منتشراً في أرجاء مدينة عدن في القرون الماضية لا تقتصر مهمتها في أداء الفرائض فحسب، بل وتتعداها إلى التدريس والتحصيل الفقهي واللغوي بعلومه المختلفة، حيث يوجد فيها أساتذة يقفون حياتهم على تدريس علوم الفقه والحديث وعلوم اللغة العربية وفق الطرائق والأساليب القديمة في التعليم، إضافة إلى مهمتهم كأئمة يؤمون الناس في الصلاة، وثمة عدد آخر من هؤلاء الأساتذة الفقهاء يفدون إلى عدن بغرض التدريس وحده -فيما نظن- ويتخذون لهم مواضع في المساجد ثم يتحلق حولهم التلامذة وطلاب العلم.

وقد تسمى هذه المساجد بأسمائهم كمسجد أبان المنسوب إلى أبان بن عثمان

بن عفان . أو الحكم بن أبان[١] ، ويروى أن ابنه إبراهيم بن الحكم المعروف بالعدني كان أستاذاً فيه[٢] . ومسجد أبي شعبة المنسوب إلى الفقيه محمد بن يحيى أبو شعبة الحضرمي على مايذكر الجندي[٣] ، والذي يتسمى أيضا بمسجد (التوبة)[٤] .

أما غالب المساجد فقد تتسمى بأسماء مؤسسيها أو بناتها من الأولياء والفقهاء والشعراء ، أو ممن لا علاقة لهم بالإمامة والتدريس . كمسجد الزنجبيلي نسبة إلى عثمان الزنجبيلي والي عدن في العصر الأيوبي[٥] ، ومسجد العندي نسبة إلى الوزير والشاعر والشخصية المرموقة في العصر الزريعي أبي بكر العندي[٦] ، ومسجد العيدروس المنسوب إلى أبي بكر العيدروس المتوفى سنة ٩١٤هـ ، ومسجد حسين المنسوب في أغلب الظن إلى حسين بن صديق الأهدل ، ومسجد ابن البصري المنسوب إلى التاجر ابن البصري الذي كان يقوم به ويصلحه على حد تعبير الجندي[٧]

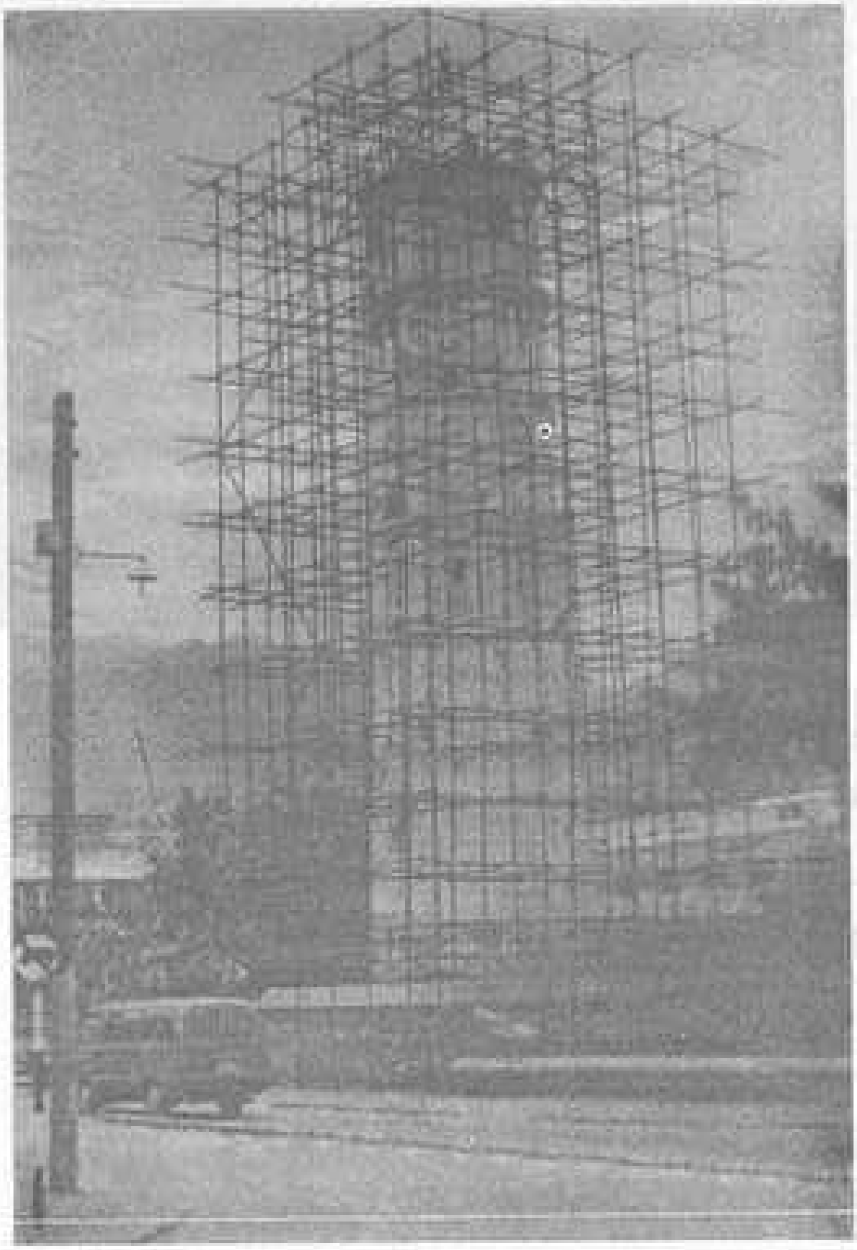

صورة لمنارة عدن أثناء ترميمها

ومؤسسه الشاعر العندي، وربما أضاف إليه ياسر بن بلال بعض الأروقة والأجنحة.

وقد يغلب الموضوع على المسجد فيتسمى به كمسجد السوق صاحب المنارة الذي يقع على مقربة من سوق الخضروات والفواكه، كما يبدو من رسم مدينة عدن عام ١٨٦٧م المنشور في كتاب (عدن تحت الحكم البريطاني) لجافينج ١٨٣٩-١٩٦٧م.

وكان يقرأ فيه الحديث والقرآن[٨]، وغالب أئمته من غير اليمنيين[٩]، ومسجد حرام الشوك[١٠]، ولعله نسبة لإحدى حارات مدينة عدن القديمة.

كما تطلق التسمية على المسجد نتيجة ازدحام الطلاب والمريدين عليه كما هو الحال في (مسجد السماع)[١١]، الذي درّس فيه عدد من العلماء منهم العالم الكبير علي بن محمد بن حجر الشحري[١٢].

وقد اندثرت معظم هذه المساجد وظل اثنان منها قائمين إلى عام ١٨٣٩م كما

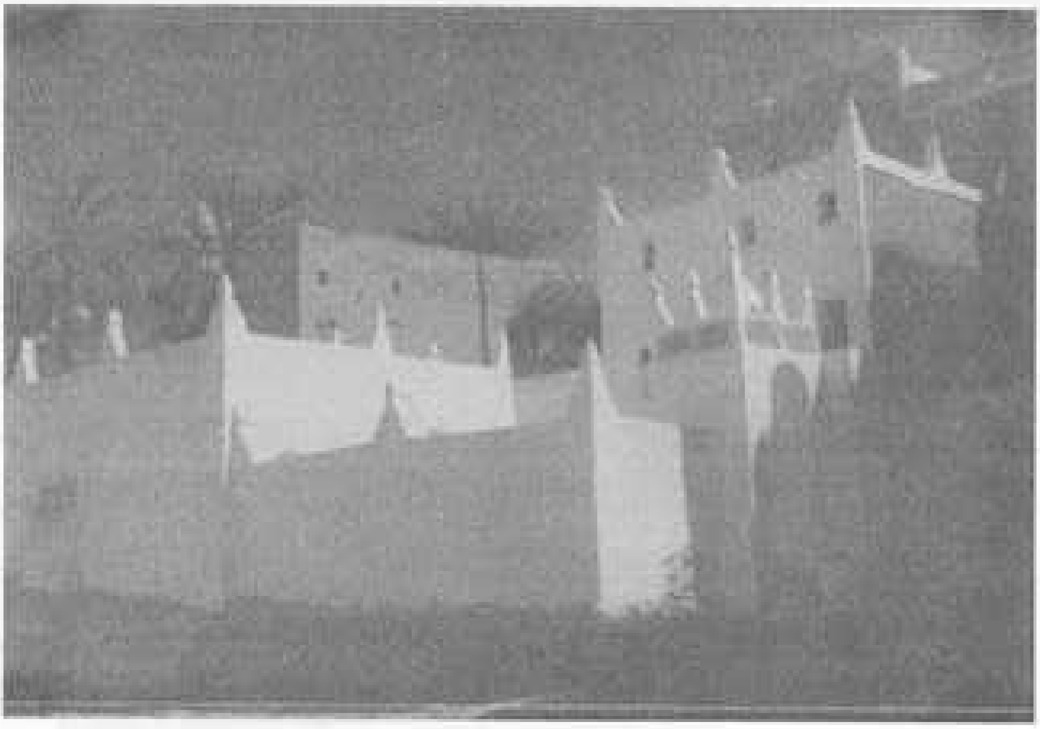

أقدم مسجد في تريم / حضرموت

تذكر المصادر الأوربية، فقد أشار ار. ج. جافينج إلى مسجدين اثنين كانا قائمين عند احتلال المستعمرين البريطانيين لعدن وهما مسجد العيدروس ومسجد السوق[١٣].

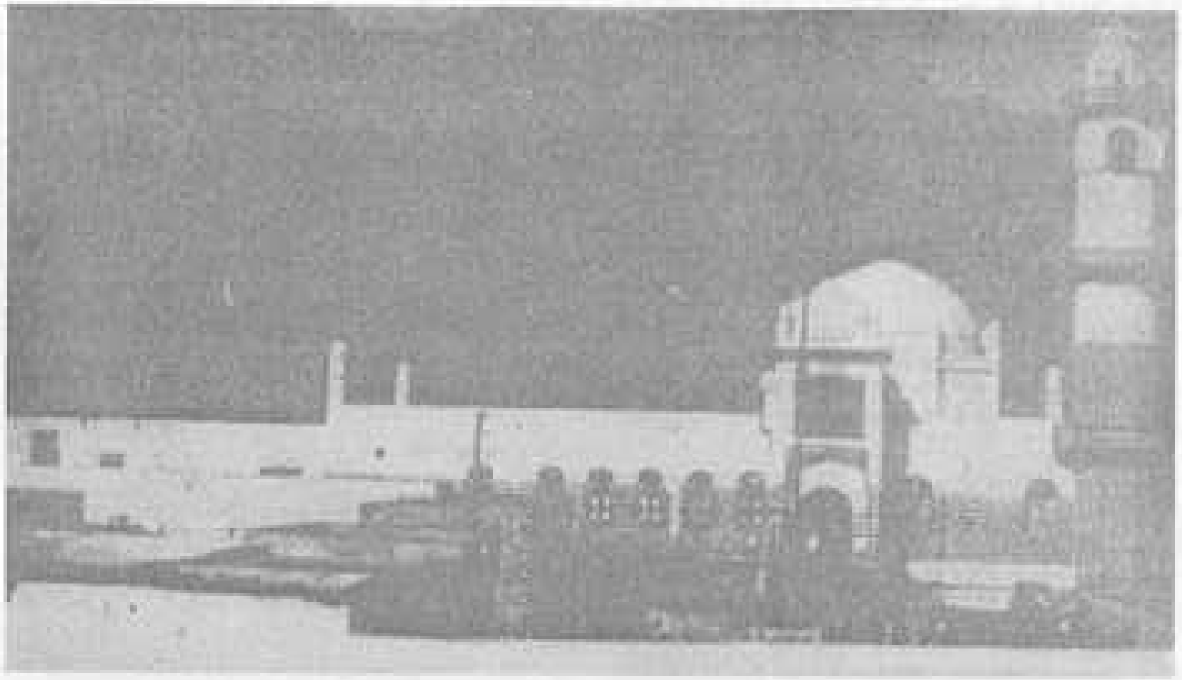

مسجد العيدروس بعدن

ويرى الكابتن ار. ال. بليفر أن واحدا منها فقط كان صالحاً، أما الآخر فخربة مهدَّمة[١٤]. ورمَّم البعض الآخر كمسجد أبان ومسجد العيدروس اللذين رممهما وعمَّر بعض أجنحتهما إسماعيل حبيب الميمني[١٥]، ومسجد حسين الذي قام بترميمه وتعمير بعض أروقته بعض الموسرين من أهالي عدن في منتصف القرن الماضي[١٦]. وبديه أننا لا نستطيع إيثاراً للاختصار حصر المساجد الأثرية في مدينة عدن في هذه التوطئة القصيرة، فقد عرض لها باستفاضة المؤرخ الجندي[١٧]، وأثبت بعضها الأستاذ لقمان[١٨]، غير أننا نود القول إن معظم هذه المساجد قد تغيرت ملامحها القديمة تماماً باستثناء (منارة الجامع)، ولهذا فهي حرية بالدرس وجديرة بالتنويه.

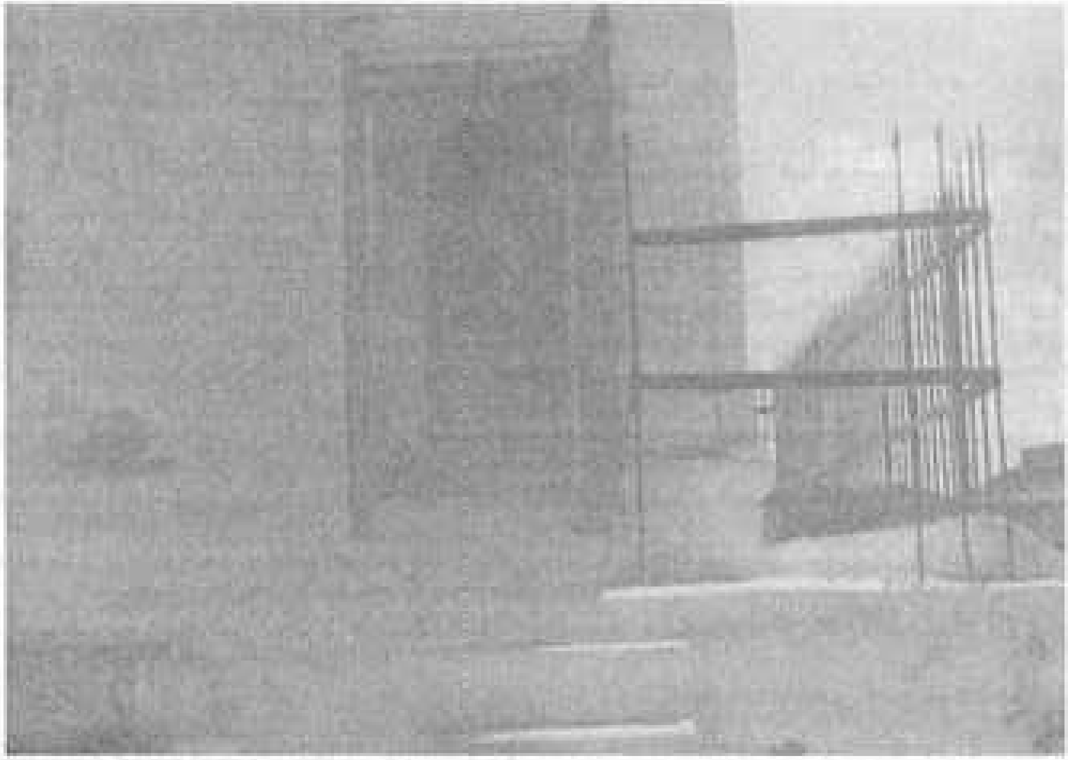

بوابة منارة عدن التاريخية

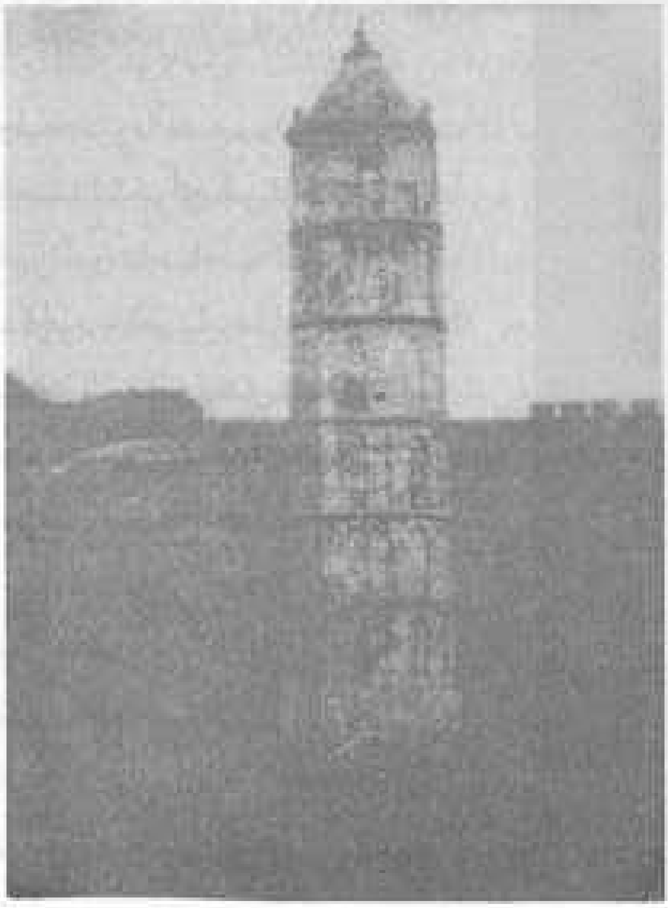

منارة عدن قبل ترميمها

موقع المنارة

تقوم هذه المئذنة اليوم -والتي نحن بصدد تاريخها- قبالة ميدان كرة الطائرة في طرف حديقة صغيرة بمحاذاة مبنى البريد العام، وتقف على قاعدة مضلعة، متخذة شكلاً مخروطياً، ولها سلم حلزوني ذو ست وثمانين مدرجا يقود الزائر إلى موضع الأذان، ويظن بعض الباحثين المحدثين[١٩] أن هذه القاعدة المضلعة المحاطة بها لم تكن موجودة في أوائل عقد الأربعينات، وأن المنارة نفسها كانت آيلة للسقوط بحيث لايستطيع المرء صعودها وجِلا، بيد أن الصورة التي التُقطت لها في عام خمسين وتسع مئة وألف والمثبتة في العدد ٥٠٢ من صحيفة فتاة الجزيرة[٢٠] تنفي صحة هذه الرواية، فالقاعدة فيها واضحة جلية، ولكن من المحتمل أن تكون قد بنيت في أواخر عقد الأربعينات، غير أننا لانستطيع أن نصدر حكماً قطعياً بهذا الصدد، فالدراسات العلمية الميدانية الحديثة ترجح أن أسس القاعدة ربما تعود إلى عصر ماقبل الإسلام[٢١].

وقد تفرد أحد زوار المنارة في عقد الخمسينات برأي غريب لاتطمئن إليه النفس أورده صاحب تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ومفاده: إن هذه المأثرة ماهي إلا فنار يهدي السفن إلى الميناء ملتمساً حجة نظنها واهية، فقد أكد أن المرء لايقف على منصة الأذان إلا منحنياً، وماتشك في أنه لم يصعد إلى هذا الموضع ألبتة، والملاحظ أنه لم يحفل برأيه أحد غير الأستاذ لقمان، ففي زيارتنا الأخيرة للمنارة في منتصف شهر يناير من عام خمس وثمانين وتسع

منارة عدن التاريخية بعد الترميمات عليها

مئة وألف، تمكناً من الوقوف على موضع الأذان بلا انحناء وانكسار على نحو مايقف المؤذن، بيد أننا لاحظنا أن طرائق المئذنة تختلف اختلافاً بيناً عن المآذن الأخرى المنتشرة في بلادنا، فالمنافذ التي ينبغي أن يخرج منها صداح المؤذن مثلاً تقع في الأسفل بحيث يحتبس جزء من الصدى في الداخل، وهي طرائق فريدة لعلها تعود إلى العصر السلجوقي في اليمن. وستثبت بعض الآراء في مواضعها من الدراسة.

وبالجملة فقد أكدت معظم الدلائل التي سوف نبسطها بعد قليل أن هذه المنارة هي الأثر الوحيد لجامع كبير كان قائماً في هذا الموضع، وقد تهدم بفعل القدم، وبفعل الظواهر الطبيعية المختلفة التي طرأت عليه.

وربما كانت أروقته وأجنحته ممتدة إلى الغرفة التجارية وحتى ميدان الشهيد الحبيشي، أو ميدان كرة الطائرة الحديث، فقد عثر في الستينات بعد إجراء الحفريات على أربعة تيجان أعمدة[٢٢] ذات نمط إسلامي في الموضع نفسه، تدل زخرفتها على أنها بقايا أثر إسلامي كان قائماً على مقربة من هذا الميدان. وما يزيد ظننا رسوخاً أن هذا الحيِّز الكبير -على مايذكر صديقنا الأستاذ البحاثة حسن صالح شهاب- كانت تنتشر على جوانبه قطع الآجر وهي من أدوات البناء المستخدمة قديماً، ويبديه أن تكون بقايا هذا الجامع الكبير. وأشار الأستاذ البحاثة صاحب كتاب تاريخ عدن وجنوب الجزيرة في معرض حديثه عن المنارة إلى دليل آخر لا يخلو من الصحة، وهو وجود بعض مشاهد قبور آنذاك في البقعة، وأضاف: «إن العرب كانوا يدفنون موتاهم حول المساجد»[٢٣]. وقد ظهرت ثلاثة مواضع في جلاء في الرسم البرتغالي لمدينة عدن في عام اثني عشر وخمس مئة وألف أحدها جامع المنارة، وهو الواقع على الأرجح في أقصى اليمين. ويبدو واضحاً أن الجوامع الثلاثة كانت سليمة صالحة لم تمسها يد الأضرار اللاحقة بالمدينة من جراء الغزو الاستعماري، والظواهر الطبيعية على الرغم من لمسات الخيال التي تبدو على جبال عدن[٢٤]. وثمة صورة أخرى مماثلة أثبتها الدكتور ار. ى. سارجنت في مؤلفه المعروف تغاير هذا الرسم المثبت في مؤلف هارولدف، ولكنها أكثر إيغالاً في الخيال، فالمسجد

الواقع في أقصى اليمين تبدو أروقته على شكل قلاع مخروطية الشكل، أما (جامع المنارة) فيبدو وكأنه مسور ويقع في نفس موضعه من الصورة السابقة[٢٥].

والجدير بالملاحظة أن هذه الصورة أخذت للمدينة -كما يشير سارجنت- مابين عام ثلاث عشر وخمس مئة وألف، وأربع عشرة وخمس مئة وألف. ويذكر هارولدف يعقوب[٢٦] أن هذا الجامع وفق رواية علي باطير كان قائماً على حافة البحر عند احتلال المستعمرين البريطانيين لمدينة عدن، غير أن هذه الرواية تنفيها بعض التقارير البريطانية الأخرى[٢٧].

زمن تشييد الجامع واختلاف آراء المؤرخين بهذا الصدد

لعله بعد بسط هذه الأدلة التي تعوزها الدقة العلمية يمكننا التخمين بأن الجامع كان يتخذ له مساحة كبيرة تمتد إلى ملعب كرة الطائرة الحديث وحتى موضع الغرفة التجارية، وهو على هذا الأساس من أضخم جوامع المدينة حينذاك، بل ربما كان أضخم المساجد في اليمن بأجمعها كما يعتقد بعض الدارسين[٢٨].

وقد أجمع المؤرخون[٢٩] اليمنيون على أنه من مآثر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز في عدن، أي أنه يعود إلى مخلفات العصر الأموي في اليمن باستثناء ابن المجاور الذي يعزو بناءه إلى الفرس[٣٠]، ويروى أنهم عثروا على كمية من العنبر وأتوا بها إلى حاكم عدن الذي أوعز إليهم أن يبنوا بثمنها مسجداً[٣١]. وقد نقل المؤرخ بامخرمه الرواية بحروفها ولم يضف إليها شيئاً[٣٢]. هذا على حين لم تشر المصادر العربية التي ترجمت الخليفة عمر إلى هذه المأثرة المنسوبة إليه[٣٣].

ومما يجدر ذكره أن جميع المصادر التي وقفنا عليها لم تتناول بالدرس مآثر الخليفة عمر في البلاد العربية ألبتة. والطريف أنها لم تتفق في صيغة الترجمة أو تكاد، مما يدل على أنها استقت الروايات من مصدر واحد تقريباً. ويطالعنا الأستاذ البحاثة حمزة لقمان برواية أبي الفداء التي تعزو بناء الجامع إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز[٣٤]، في حين يذكر هارولدف يعقوب أن البناء تم في وقت ماقبل عام ٧١٨ ميلادية[٣٥].

ولكن الأمر الذي يبعث على الحيرة أن هناك مؤرخين اثنين لاثالث لهما يتسميان بأبي الفداء، أحدهما (أبو الفداء) إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المؤيد صاحب حماة والمتوفى سنة ٧٣٢هـ-١٣٣١م[٣٦]، ومن أبرز مؤلفاته التاريخية المختصر في تاريخ البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء، (وتقويم البلدان) وغيرهما، والآخر (أبو الفداء) إسماعيل بن عمر بن كثير المعروف بالحافظ ابن كثير والمتوفى سنة ٧٧٤هـ-١٣٧٣م وله الموسوعة المعروفة بالبداية والنهاية وغيرها، وكلاهما لم يشر إلى هذه الرواية في مؤلفاتهما التي وقفنا عليها[٣٧]، ولاشك أن الأستاذ حمزة لقمان قد وقف على مصدر لم نقف عليه ولعله عزيز الوجود في مكتباتنا.

واختلف بعض الكتاب الأوربيين في الفترة الزمنية التي بني فيها الجامع[٣٨]، والجهة التي مولت العمل، فالمستفاد من تقرير الكابتن أف. أم. هنتر عن مستعمرة عدن على أن الجامع بني في عصر بني رسول، حيث يذكر أن أميرة من بني غسان ابتنته في الفترة مابين ٨٠٠هـ-و١٠٠٠هـ و١٣٩٧و ١٥٩٧م[٣٩].

ولم نستطع أن نسيغ هذه الرواية لما فيها من الغرابة وعدم الدقة، فالمعروف أن آل رسول حكموا اليمن من ٦٢٦-٨٥٨هـ ١٢٢٩-١٤٥٤م، وآل الأمر بعد ذلك إلى آل طاهر ٨٥٨هـ-٩٣٣هـ ١٤٥٤-١٥٢٦م، وهذا يعني أن الجامع بني بين عهدين مختلفين اختلافاً كلياً.

ومما رواه المؤرخون اليمنيون أن الحرة جهة الطواشي اختيار الدين ياقوت ابتنت مدرسة سميت بالمدرسة الياقوتية بحافة الشيخ البصال بمدينة عدن، وعينت فيها إماماً ومدرساً وهي على مقربة من الجامع[٤٠]، وابتنى الملك الظاهر الرسولي مدرسة أخرى عند باب الساحل ذات منارة ليس لها في اليمن نظير كما يقول ابن الديبع[٤١]. ونظراً لقرب هاتين المدرستين من الجامع فقد ظن صاحب هذه الرواية أن جهة الطواشي هي التي ابتنت الجامع. وأكبر الظن أن أغلب الروايات التي يسوقها الضباط البريطانيون السياسيون الذين تقلبوا في مناصب مختلفة في مستعمرة عدن هي من قبيل الحدس والتخمين ولاتستند إلى قرائن منهجية.

أما هارولدف انجرامس فيُرجع الجامع إلى أيام سليمان العظيم المتوفى في سنة أربع وسبعين وتسع مئة، أي إلى العصر العثماني في اليمن[٤٢]. وبمقارنة روايته هذه بالمصادر التي ترجمت سليمان القانوني، أو كما يصفه الكتاب الغربيون بالعظيم تبين أنها أغفلت هذه المأثرة في سياق عرضها لمآثر سليمان في الدولة العثمانية والولايات العربية[٤٣]. وتفيد الدراسات العلمية الحديثة التي أجريت على المنارة أن زخرفتها بصفة خاصة تمتاز بأسلوبها السلجوقي، وذلك نتيجة للمكوث العثماني القصير بعدن كما يقول العالم السوفييتي سيرجي شيرنسكي، فلعل سليمان أجرى عليها بعض الإصلاحات بواسطة المعمار سنان أو غيره، والمعروف أن السلطان سليمان كان طويل الباع في هذا المضمار[٤٤]. ويشير بعض[٤٥] المؤرخين اليمنيين إلى جامع ما في عدن، كان كما يبدو من رواياتهم واسع الأرجاء ذا حظوة عند الجمهور، وكان الفقهاء والعلماء القادمون من الأمصار المختلفة يفدون عليه ويؤدون فيه الصلاة. وقد ألمح إليه المقدسي البشاري المتوفى سنة ٣٨٠هـ- ٩٩٠م وقال مامفاده: إنه يقع على الساحل[٤٦]، وأضاف: إنه صلى فيه التراويح[٤٧]، وكان إضافة إلى وظيفته كجامع مدرسة كعادة المساجد قديماً، فقد كان يدرّس فيه الحسين بن الصديق الأهدل الحديث والفقه والنحو[٤٨]. وتعاقب على منصب الخطابة فيه عدد من الأئمة والعلماء أمثال أبي بكر بن يوسف بن إسحاق المشهور بابن المستأذن والمتوفى سنة خمس عشرة وثمان مئة[٤٩]. وعُرف هذا الخطيب ببراعته في فن الأدب والخطابة، وتلاه ابنه عبد الرحمن[٥٠].

التجديدات التي طرأت على الجامع على مر الزمن:

ولايمكن إصدار حكم قطعي بصدد هذا الجامع الذي أغفل المؤرخون اسمه واكتفوا بنسبته إلى عدن[*]، والأرجح أنه جامع عدن (المنارة) الذي نحن بصدد تاريخه، فقد أكد غير واحد من الكتاب والدارسين أنه كان واسع الأرجاء، وهذا وجه التسمية فيما نظن -فالجوامع بطبيعة الحال تتسع لأكبر عدد من المصلين،

(*)ورد ذكر جامع عدن دون تحديد موضعه في تضاعيف مخطوطة تاريخ بافقيه الشحري للمؤرخ اليمني محمد بن عمر بافقيه في أكثر من موضع وهي مخطوطة أعمل على تحقيقها ودرسها.

وتؤدى فيها صلاة الجمعة، وهذا ينطبق على هذا الجامع الذي أشار إليه المؤرخون، فالمتبادر أنه كان من أضخم جوامع المدينة، وجُدِّدَ في عصر الدولة الزيادية، وأضيفت إليه بعض الأجنحة، فقد أجمع المؤرخون(٥١) اليمنيون على أن الأمير حسين بن سلامة المتوفى سنة ٤٢٦هـ جدد الجامع، ولهذا أطلق عليه بعض الدارسين مسجد سلامة، أو مسجد حسين(٥٢)، وذكروا أن الأمير حسين كان يولي أهمية خاصة بالمشاريع المتعلقة بتخطيط المدينة وتعميرها(٥٣)، ويظن المؤرخان الجندي والأهدل على(٥٤) «أن الأمير حسين زاد في الجامع جناحين من جهة الغرب»، هذا على حين يذكر باخرمه أن عامر بن عبد الوهاب قام بتجديد الجامع أيضاً(٥٥)، وقد نوه قطب الدين المكي في البرق اليماني بمآثر عامر العظيمة في اليمن ولكنه لم يشر إلى هذه المأثرة(٥٦).

ونصَّب عمران بن محمد بن سبأ حاكم عدن المتوفى سنة ٥٦٠هـ منبراً فيه له «حلاوة في النفس وطلاوة في العين». كما يقول الجندي(٥٧). ويظن باخرمه أن المجاهد الغساني قام بتجديد المنبر، وهذا ماتوحي به الكتابة المثبتة عليه، كما تفيد خلاصة الرواية(٥٨).

ترميم المنارة

أما المنارة وهي الأثر الوحيد من الجامع فقد أجريت فيها بعض الترميمات في أوائل عقد الخمسينات وربما قبل ذلك، غير أننا لم نقف على مصدر موثوق بهذا الصدد غير التعليق الوارد أسفل صورة المنارة المنشور في فتاة الجزيرة(٥٩)، والذي أشار إلى إجراء هذه الترميمات في حدود عام خمسين وتسع مئة وألف، وأعقب ذلك حفر في الميدان عُثر فيه على بعض آثار جدران قديمة لعلها أسس الجامع، أو بقايا بعض أجنحته فيما نظن. وفي مطلع عقد السبعينات، وبالتحديد في مارس من عام اثنين وسبعين وتسع مئة وألف قام العالم السوفييتي سيرجي شيرنسكي بزيارة المنارة ودعا إلى «إجراء حفريات أثرية شاملة في هذا الموضع وفق تخطيط دقيق». وهذا وحده يكشف الزمن التاريخي الدقيق للمبنى.

وفي أواخر عقد السبعينات تمكنت بعثة اليونسكو برئاسة رونالد ليوكوك من

زيارة الموقع وإجراء بعض المسوحات الأولية عليه، ونبهت إلى الشقوق العميقة والحادة فيه، وأوصت إلى القيام بترميمات شاملة للموقع على ألا تمس الأثر التاريخي، واستخدام المواد والمؤن القديمة من الحجر البركاني الهش والجبس والنورة -في الترميم[٦٠].

وعهد المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف بمهمة الترميمات -وفق الشروط العلمية والتوصيات والتوجيهات الواردة في التقرير- إلى وزارة الإنشاءات والتركيبات الصناعية التي شرعت في الترميمات في ١٩-٣٠-٨٣م، وبلغت تكاليف الترميم كما -أشار الأستاذ عبد الله عبد الكريم الملاحي نائب المدير العام للمركز اليمني للأبحاث الثقافية ٣٨٠ و٣٠ ثلاثين ألف دينار وثلاث مئة وثمانين ديناراً.

وبعد مضي فترة قصيرة من إتمام الترميمات، برزت بعض التقشرات في المبنى نتيجة تعرضه للرطوبة، وشاهد بعض خبراء الصيانة[٦١] هذه التشوهات ودعوا إلى ضرورة معالجتها قبل استفحالها.

والجدير بالذكر أن اختصاصي صيانة المآثر التاريخية والمباني المختلفة يعالجون هذه المسألة بطرائق علمية دقيقة، يستخدمون فيها أجهزة دقيقة، منها مايتعلق بقياس الرطوبة وتحديد محتواها في الجداران، وأخرى لقياس الحرارة في الهواء وفوق سطوح الجدران، وثالثة لمعرفة نسبة الماء المرتفع من الطوابق الأرضية أو من أسفل المبنى وغيرها.

فقد أكدت بعض الدراسات العلمية الحديثة أن الرطوبة ربما ترتفع من الأرض نتيجة وجود المياه الجوفية تحت هذه المأثرة أو تلك.

ويمكن أن تأتي من الهواء عن طريق التكاثف كما يقول جيوفاني مزري في دراسته القيمة (الرطوبة في المباني التاريخية)[٦٢].

ومن المؤمل أن تعقب هذه الترميمات دراسة تتناول هذه الظاهرة الجديدة التي برزت مؤخراً، فإن من الأهمية بمكان معالجتها، وذلك بالاستعانة بخبراء صيانة

المباني التاريخية تفادياً لحدوث تصدعات وتشققات أخرى تنجم في أغلب الظن من تسرب المياه إلى المبنى بتلك الوسائل السابقة.

لجنة إضاءة منارة عدن التاريخية

والآن وقد فرغنا من دراسة هذه المائرة بما في هذه الدراسة من ألوان القصور نود أن نعيد إلى الأذهان فكرة إضاءة المنارة، ومادمنا اليوم نحرص عليها الحرص كله كمعلم من معالمنا التاريخية فإننا نرى ضرورة إضاءتها فهي حرية بالاهتمام.

الهوامش

(١) الجعدي، طبقات فقهاء اليمن ص ٦٦ ذكر أن الإمام أحمد بن حنبل ارتحل إلى عدن ليأخذ من إبراهيم هذا.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٦

(٣) الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، (مخطوط) ميكروفيلم، مكتبة الفقيد عبد الله باذيب، مجموعة باريس ٢١٢٧ ورقه ١٧٢ وقد اطلعت على المصورة الميكروفلمية قبل صدور الجزء الأول من السلوك بتحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع.

انظر أيضاً حمزة لقمان -تاريخ عدن. . . ص٢٦٥-٢٦٨

(٤) الجندي، السلوك ورقة ٩

(٥) نفس المصدر ورقة ٧٠. ويبدو من كلام الجندي أن هذا المسجد قد نال حظا من عناية الدولة وقتئذ.

(٦) المصدر نفسه ورقة ١٦٩، انظر أيضا حمزة لقمان -تاريخ عدن ص ٢٦٥-٢٦٨

(٧) الجندي، والسلوك ورقة ١٨٧

المصدر نفسه ورقة ٣٤-١٧٥، وانظر حمزه لقمان -تاريخ عدن. . ص٢٦٥-٢٦٨

(٩) الجندي، السلوك ورقة٣٤

(١٠) المصدر نفسه ورقة ١٦٧

(١١) المصدر نفسه ورقة ١٧٢

(١٢) حمزة لقمان، تاريخ عدن ص٢٦٥-٢٦٨

(١٣) أر. ج. جافينج -عدن تحت الحكم البريطاني ص٢٦٨

(١٤) الكابتن أر. بليفر تاريخ الجزيرة العربية أو اليمن ص١١-١٢

(١٥) فتاة الجزيرة، العدد ٨٥٠٣ يناير ١٩٥٠م ص٧

(١٦) المصدر فسه.

(١٧) الجندي، السلوك ورقة ٣٤- ٧٠- ٩١- ١٦٧- ١٦٩- ١٧١- ١٧٢- ١٧٥- ١٨٣- ١٨٦- ١٨٧

(١٨) حمزة لقمان- تاريخ عدن. . . ص ٢٦٤- ٢٦٥- ٢٦٦- ٢٦٧- ٢٦٨

(١٩) حسن صالح شهاب صاحب المؤلفات البحرية المعروفة، وهو يشغل وظيفة باحث بالمركز اليمني

للأبحاث الثقافية بعدن، ومن مؤلفاته: (فن الملاحة عند العرب) (وأضواء على تاريخ اليمن البحري) (والمراكب العربية) (وعدن فرضة اليمن)، وغيرها

(٢٠) فتاة الجزيرة ص٣٢

(٢١) سيرجي شيرتسكي -أضواء على الآثار اليمنية ص١٧

(٢٢) هي محفوظة بالمتحف الوطني التابع للمركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف (البراق) قاعة الفن الإسلامي، وورد في فتاة الجزيرة العدد ٢-٥ ١٩٥٠ في تعليقها على صورة المنارة أنه أجري حفر في مواضع قريبة من المنارة، وفي أثناء الحفر عثر على بعض آثار منها جدار كان تحت الأرض، غير أننا لم نعثر على هذه الآثار في المتاحف الوطنية باستثناء تيجان الأعمدة المشار إليها سلفاً.

(٢٣) حمزة لقمان - تاريخ عدن.. ص٢٧٣

(٢٤) انظر الرسم في هارولدف يعقوب -ملوك شبه الجزيرة العربية ترجمة أحمد المضواحي ص٥٩.

(٢٥) انظر الرسم البرتغالي لمدينة عدن عام ١٣-١٥١٤م ٩١٩هـ ص٤٧ (٢٦) هارولدف يعقوب -ملوك شبه الجزيرة العربية ص٣٥٩-٣٦٠

(٢٧) بليفر -تاريخ الجزيرة العربية أو اليمن ص١-١٢، وجافينج -(عدن تحت الحكم البريطاني) ص٣٦٦

(٢٨) مجلة الأفكار السنة الأولى ديسمبر ١٩٤٥م ص١٥-١٦. وحمزة لقمان- تاريخ عدن ص٢٧٢

(٢٩) انظر عمارة اليمني -تاريخ اليمن- تحقيق محمد علي الأكوع الطبعة الثانية ص٧٢، وانظر الكتاب بتحقيق هنري كسلس طبعة سنة ٢٣٠٩م ص٧. ووجيه الدين الحبشي الوصابي- الاعتبار في التواريخ والآثار- تحقيق عبد الله الحبشي طبعة مركز الدراسات اليمانية صنعاء ص٢٧-٢٨، والخزرجي -تحفة الزمن في أخبار ملوك اليمن (مخطوط) بميكروفيلم مكتبة الفقيد عبد الله باذيب رقم ١٦٥ ورقة ٣٦ وهي منسبة إلى الخزرجي ويرى البعض أنها للأهدل، والطبري- تاريخ الأمم والملوك وابن الاثير- الكامل وغيرها.

(٣٠) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص١٢٠

(٣١) المصدر نفسه ص١٢٠

(٣٢) بامخرمة، تاريخ ثغر عدن ١/ ٣٩-٤٠، أشار المقدسي البشاري صاحب أحسن التقاسيم إلى العنبر وقال إنه على حافة البحر من عدن إلى مخا، ومن وجه زيلع أيضا، وكل من وجد منه شيئاً قل أو كثر حمله إلى صاحب السلطان وأخذ دينارا ولايقع إلا وقت هبوب الريح الأزيب. انظر ص١٠١-١٠٢

(٣٣) انظر مثلا السيوطي -تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط(١) ١٩٥٢م ترجمة عمر عبد العزيز، والعقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اليمن (مخطوط)، وابن سعد -الطبقات، وابن خلدون -المبتدأ والخبر، والمسعودي -مروج الذهب، وابو الفداء -المختصر في تاريخ البشر -١/ ٢٠٠-٢٠١

(٣٤) حمزة لقمان -تاريخ عدن. . . ص٢٧١

(٣٥) هارولدف يعقوب -ملوك شبه الجزيرة العربية ص٣٥٩-٣٦٠

(٣٦) الزركلي -الأعلام ٣١٩/١

(٣٧) انظر المختصر في تاريخ البشر، وتقويم البلدان، والبداية والنهاية .

(٣٨) وعلى الأخص أولئك الذين اعتمدوا على تقرير هنس عن مستعمرة عدن في مادة كتابتهم عن تاريخ المنطقة أمثال بليفر -وهنتر.

(٣٩) حمزة لقمان -تاريخ عدن. . . ص٢٧٢، تجدر الملاحظة أن الخزرجي لم يتعرض في العقود اللؤلؤية لتشييد جهة الطواشي للمدرسة الياقوتية .

(٤٠) قلائد النحر ٣٢/ ١٨٧-١٨٨ مجموعة آل بن سهل الأحقاف (مخطوط) تريم رقم ١٦٠ يذكر الجندي في السلوك ورقة ١٨٦ أن هناك مسجداً يسمى مسجد الخرة يقع على مقربة من جامع عدن، ولعله الكائن في شارع الملك سليمان المعروف قديماً بحافة البصال نسبة لأحد علماء الدين .

(٤١) ابن الديبع -بغية المستفيد- تحقيق عبد الله الحبشي ص١١٠

(٤٢) هارولد انجرامس -الجزر والعرب ص١٨

(٤٣) ترجمة سليمان بن سليم العثماني ميكروفيلم الفقيد باذيب رقم ٥٣٢ او ٥٥٣ و٥٤٧، وهي مخطوطة من ثلاث ورقات يبدو أنها نقلت من البرق اليماني للنهروالي، وانظر أيضاً دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثاني عشر (مادة سليمان)ص١٤٦-١٤٧-١٥٤-١٥٥-٢٢٠-٢٢٨

(٤٤) انظر ماأوردته دائرة المعارف الإسلامية في هذا الصدد .

(٤٥) ورد ذكر جامع عدن دون تحديد موضعه في تضاعيف مخطوطة بافقيه الشحري

(٤٦) المقدسي البشاري -أحسن التقاسيم ص٨٥-٨٦

(٤٧) المصدر نفسه ص١٠٠، وتفيد رواية للجندي في طبقاته أن العلماء الوافدين على الجامع يدرسون آنذاك بعض الكتب الفقهية الهامة كالشهاب .

(٤٨) محمد بن عمر بافقيه -تاريخ بافقيه الشحري (مخطوط) حوادث سنة ٩٠٢ ص ٢١

(٤٩) الجندي -طبقات فقهاء اليمن ص٣٢٨

(٥٠) المصدر نفسه ص٣٢٨

(٥١) انظر ابن المجاور -تاريخ المستبصر ص١٢٠ وعمارة اليمني -تاريخ اليمن تحقيق كاي ص٧، والوصابي -تاريخ وصاب تحقيق عبد الحبشي ص٢٧-٢٨، والأهدل تحفة الزمن (مخطوط) ص٣٦

(٥٢) انظر عمارة اليمني -تاريخ اليمن تحقيق الأكوع- محمد علي- هامش ص٧١-٧٢، وبريان دو، منشور إدارة الآثار بعدن قبل الاستقلال تحت عنوان اعرف بلادك التي أطلقت على هذه المأثرة (منارة

سلامة) نسبة إلى حسين بن سلامة المجدد الأول للجامع فيما نظن .

(٥٣) انظر مجلة الأفكار ديسمبر ١٩٤٥م ص١٥-١٦

(٥٤) حمزة لقمان -تاريخ عدن. . ص٢٧١

(٥٥) المصدر نفسه ص٢٧١

(٥٦) قطب الدين النهروالي البرق اليماني (مخطوط) ورقة ٦ اطلعت عليه قبل صدوره بتحقيق الشيخ حمد الجاسر.

(٥٧) الجندي -السلوك (مخطوط) ورقة ١٨٧

(٥٨) بامخرمة -تاريخ ثغر عدن ٢/ ١٨٦ ترجمة عمران بن محمد بن سبأ.

(٥٩) انظر التعليق المكتوب أسفل صورة المنارة المثبتة في فتاة الجزيرة العدد ٥٠٢ أول يناير ١٩٥٠م ص٢٣

(٦٠) انظر التقرير الاستشاري المقدم من البعثة إلى المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف بعدن ص٤٥

(٦١) ومنهم الخبير الباكستاني ميان عبد الحميد الذي قدم إلى عدن يوم ٢٨ يوليو ١٩٨٤م.

(٦٢) المركز الدولي لدراسة صيانة وترميم الممتلكات الثقافية -روما- إصدار المركز الإقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية في الدول العربية. بغداد -ترجمة ناصر عبد الواحد ص٥-١٢

أبواب عدن التاريخية

مدخل تمهيدي

فن الهندسة المعمارية عند اليمنيين:

«دراسة في أحد النماذج التاريخية المتميزة»

ليس من الغلو القول إن فن الهندسة المعمارية في اليمن قد بلغ مبلغاً جعله يضاهي فن الهندسة المعمارية في العالم القديم، وإن تعرضت معظم مآثر اليمن الحضارية الرائعة بصفة خاصة للاندثار نتيجة للحروب، والدمار، والجهل والتخلف، كقصر غمدان، وسد مارب، والعاصمة التاريخية تمنع، بما فيها من مظاهر حضارية لاتقل قيمة عن المظاهر الحضارية الأخرى في العالم القديم، وغيرها كثير.

فقد أسهب المؤرخون والدارسون في تناول هذا الفن المعماري الراقي، وأفاضوا في درسه، إلا أن أحداً لم يفرد له دراسه منفصلة، وذكروا نماذج مختلفة منه، منها قصر غمدان، الذي كان ممتداً من شرق الجامع الكبير بصنعاء إلى حد مسجد الحميدي كما يقول السياغي(١)، ويتكون من عشرين طابقاً، ولعل أبرز مايميزه، تلك الرخامة البديعة التي تغطي سطحه، وتماثيله، من الأسود النحاسية الرائعة التي تزأر كلما هبت الريح.

أما مسجد الجامع الكبير الذي حل محله الآن -على الأرجح- فهو الآخر من المآثر البديعة، إذ يقف على اسطوانات تعود إلى العصور الحميرية، وقد زُخرفت سقوفه ورُصِّعت بالفسيفساء.

ومن المآثر التي تقف على اسطوانات وأعمدة بديعة الشكل محرم بلقيس، معبد الاله المقه، حيث يرى بعض الدارسين(٢) أن أعمدته تشبه أعمدة جامعة موسكو مع الفارق بين الأثرين، فمحرم بلقيس كان قائماً قبل ثلاثة آلاف سنة، بينما شُيِّدت جامعة موسكو حديثاً. هذا إلى جانب القصور العظيمة التي اندثرت كقصر

ريدان، وناعط، وسلحين، وذيزن، وهو الذي قال فيه علقمة بن جدن:

ومصنعة بذي ريدان آست بأعلى فرع متلفة حلوق(٤)

والسدود العظيمة، كسد الخانق، وسد مارب العظيم، الذي يُقدَّر أنه بُني في الألف الأول قبل الميلاد، أو بين ٨٠٠-٩٠٠ ق-م كما يرى بعض الدارسين، وهو آية في الروعة ودقة البناء والمتانة، وصهاريج عدن التاريخية(٥)، وحصن الغراب، والمباني التاريخية القديمة في دار العرائس بمحافظة لحج، والقلاع التاريخية المنتشرة على الجبال، والطرقات، والأنفاق التي شُقت في بطون الجبال، والأودية الوعرة، كل ذلك يدل على تطور فن الهندسة المعمارية في اليمن مع مافي هذه النماذج من قصور وإيجاز.

وقد أكدت معظم الدراسات الميدانية التي أجراها خبراء الآثار والمعالم التاريخية على دقة بناء وتشييد هذه المآثر، بحيث أجمعوا على أن بناة هذه المآثر يمتلكون قدرات علمية، غاية في الدقة، فهم على دراية بأساليب البناء الحديثة، من اختيار المواد والمكونات لهذه المأثرة أو تلك، ومعرفة تسرب الرطوبة، أو المياه الجوفية إليها -إن وجدت- وتحديد الموضع المناسب للبناء. ولعل الدارس الحصيف يستطيع تبين ذلك من خلال معاينة وضعية المآثر التاريخية على الواقع.

الطرقات، والأنفاق كشكل من أشكال فن الهندسة المعمارية في بلادنا

ومن المآثر ذات الصلة المباشرة بموضوعنا، الطرقات، والأنفاق القديمة، التي لاتخلو منها معظم جبالنا، فقد أشارت النقوش إلى فتح بعض الأنفاق والثغرات في جبال قتبان الواقعة في حدود بيحان حالياً، وذلك في عهد مكرب قتبان، يدع أب ذيبان، المعروف بجهوده الجبارة في البناء والتعمير، وبخاصة في مايتعلق بشق الأنفاق، ورصف الطرقات، وبناء المعابد، وقد شُق في عهده ممر مبلقة أو مابلق بين بيحان ووادي حريب الذي شاهده وينذل فيلبس أثناء تجواله في بيحان وقال واصفا الممر:

«هو عبارة عن طريق صناعية شقها الإنسان لتصل بين وادي بيحان ووادي حريب، فعلى امتداد هذا الممر، ويبلغ ثلاثة أميال، ترتفع جدران إلى مسافة ألف قدم في انحناءات خطرة، أما طريق الممر فيتراوح عرضها مابين خمسة عشر قدماً، واثني عشر قدماً. ويمكن القول إن شق هذا الممر من الأعمال الجبارة، ويشبه نفق بيلطة لتكسير الثلج»[٦].

وقد أشرف على هذه الأعمال كبير مهندسي قتبان أوس عم بن يصرعم[٧] المعروف بدرايته في هندسة الطرق وشق الأنفاق.

أبواب عدن التاريخية

باب الزيادة «العقبة»

باب البر وكيفية تشييده:

ولسنا نعدو الحقيقة لو قلنا إن باب عدن -الذي نحن بصدد درسه- هو واحد من هذه الأعمال الجبارة، وإن أغفله أو كاد بعض الدارسين للمحدثين المهتمين بالمعالم التاريخية والأثرية كالأستاذ حمزة لقمان، والتبس أو كاد على البعض الآخر ممن وقفنا على مؤلفاتهم، بحيث لم يتمكنوا من تحديد موضعه، فوقعوا في خلط وظنوه باب الزيادة المعروف الآن بالعقبة.

والحقيقة أن معظم المصادر التي وقفنا عليها لم تحدد مكان الباب، بيد أن الروايات التي تشير بين الحين والآخر إلى المواقع الجغرافية التي جرت فيها بعض الحوادث المهمة كقرية المباءة، أكدت صحة ماذهبنا إليه.

وباب البر ليس هو الباب الوحيد لمدينة عدن، فثمة قرابة تسعة أو ثمانية أبواب للمدينة، ستة منها كانت مركّبة في سور عدن التاريخي الممتد من جبل الخضراء وحتى جبل المنظر، وتبدو جلية في الرسم البرتغالي للمدينة عام ١٥١٢م، وقد أصبحت الآن أثراً بعد عين، والثلاثة الأخرى وهي باب البر، وباب البحر، وباب الزيادة، فما زالت في مواضعها السابقة على الأرجح.

فأين ياترى يقع باب البر الآن؟:

في الطريق المؤدية إلى باب الزيادة، العقبة حالياً، في شمال شرقي مدينة عدن، وبالذات في زقاق قبالة معهد الفنون الجميلة الواقع في شارع أروى بعدن، يوجد نفقان كان العامة يطلقون عليهما (البغدة الصغيرة والبغدة الكبيرة) هما المعروفان تاريخياً بباب البر أو باب عدن، ولاشك أنهما كانا يعتبران وقتذاك الباب الرئيسي للمدينة.

وثمة أدلة تؤكد ذلك، منها الروايات التي يسوقها المؤرخون والدارسون الأقدمون والمحدثون المتعلقة بأبواب المدينة، حيث يذكر الهمداني أن في المدينة: «جبل لم يكن فيه طريق فقُطع في الجبل باب بزبر الحديد فصار لها طريق في البر»(٨).

وقال المقدسي: «وقد شُقّ في هذا الجبل طريق عجيب، وجُعل عليه باب حديد، ومدوا من نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب»[٩].

وبإمعان النظر في هذه الرواية يتبين لنا أن الباب، أو أولئك الذين عملوا على شقه في الجبل اختاروا موقعاً مناسباً له ثم مدوا منه، أو من موقع قريب منه، سوراً، وأقاموا فيه خمسة أبواب (سنأتي على ذكرها فيما بعد). ولاشك أن الأبواب كلها -بما فيها باب البر- تمتد في خط واحد من جبل التعكر حيث الباب الرئيس، وهو جبل محصنٌ عليه رتبة، حتى جبل المنظر* الواقع في صيرة التاريخية.

وتفيد رواية للقلقشندي أن ثمة ثقبين في هذا الجبل من طرفيه كالبابين[١٠]، لاثقباً واحداً، ولاريب أن أحدهما باب البر.

ويعتقد بعض الدارسين اليمنيين أن هذا الباب يشبه نقب بينون، مما يؤكد أنه نفق لاشصر كما يعتقد البعض الآخر من الدارسين[١١].

ويذكر الأستاذ حمزة لقمان استناداً إلى رواية أغفل مصدرها في معرض حديثه عن باب البر أنه تم قطع الصخر في أوطأ جزء من الجبل، وأحدث فيه ثقب بالمطارق[١٢]، وباب البر وحده لاباب الزيادة يقع في أوطأ جزء من جبل التعكر، وقد شاهده بعض الدارسين عياناً كالأستاذ أحمد الشامي الذي مر من خلاله أثناء تجواله في عدن وقال إن طريقه تقطع صخور الجبل المشرف على الطريق، وقد اجتزناه صامتين[١٣]، وألمح بول نيزان في كتابه عدن العربية إلى أنفاق لم يحدد مواضعها حيث قال: «وهناك أنفاق مليئة برائحة النشادر الصادر عن البراز».

ويحتمل أن يكون النفقان -حينها- قد ملئا بالزبالة والقمامة بحيث ظن الرحالة بول نيزان أن رائحة البراز صادرة عنهما[١٤]، ولعله شاهد أنفاقاً أخرى في المدينة نجهلها.

(*) يمتد جبل الخضراء من محطة بترول خورمكسر حتى ثانوية الفقيد لطفي بمدينة عدن وقد أخطأ معظم الدارسين المحدثين تحديد موقعه.

أما جبل المنظر فيقف قبالة جبل صيرة، وهو من الجبال التاريخية ذات الأهمية الخاصة.

ثم عُرف هذان النفقان فيما بعد (بباب الساقين) على مايذكر أبو الفداء[١٥]، حيث كان الأهالي ينقلون الماء عبرهما، وظلا على هذا الحال حتى أوائل عقد الثلاثينات كما تفيد بعض الروايات. ويستشف من هذه التسمية الأخيرة أن ثمة باباً آخر افتتح على مقربة منهما بحيث أصبح الباب الرئيس موضعاً لمرور عربات الماء التي تجرها الدواب، ولاشك أن الباب الجديد هو باب الزيادة (طريق العقبة حاليا).

متى شق النفق؟:

وليس ثمة مايدعو إلى شك في أن هذا النفق هو أقدم عمراً من باب الزيادة (العقبة)، فقد عادت به الأسطورة إلى أيام شداد بن عاد[١٦]، وجعلت منه حبساً للمجرمين، في حين يعده ابن المجاور من مخلفات العصر الأيوبي، حيث يرى أن أبا عثمان الزنجبيلي شاده، وربما جدده أثناء تشييده لأسوار عدن التاريخية البحرية[١٧]، بيد أننا لانعلم بالتحديد متى شق.

ولكن استناداً إلى معطيات النقوش التي أشارت إلى جهود بعض ملوك قتبان في مجال التعمير والبناء وشق الأنفاق، وتعبيد الطرقات، يخمّن الأستاذ حسن شهاب أن النفق شق في عهد الملك القتباني يدع أب ذبين شهر آخر مكربي قتبان[١٨]، على اعتبار أن حكم القتبانيين امتد إلى باب المندب. وهذا يعني أنه يرجع به إلى مخلفات الحضارة اليمنية القديمة في عدن.

ويذهب المذهب نفسه الأستاذ الويسي حيث يرجع به إلى العصر الحميري[١٩]. كما ورد ذكر النفق في المصادر البريطانية عام ١٨٥٠م[٢٠]، وهي السنة التي تم فيها تصفية النفق وتنظيفه من القمامات وتراكمات التعرية على الأرجح، واستخدامه لمرور عربات نقل الماء التي تجرها الدواب، فقد أفاد الخبر الذي نشرته فتاة الجزيرة[٢١] في أوائل عقد الأربعينات أن عبد الحسين عبد العلي جارا والا البهري توفي يوم الأحد ٦ ربيع الأول سنة ١٩٤٠م، وأنه كان مقنطراً عند فتح النفقين المعروفين في عدن قبل تسعين سنة[٢٢]. ولاشك أن المراد بفتح النفقين هنا إزالة القمامات والتراكمات المختلفة منهما، واستعمالهما لغرض نقل الماء إلى المدينة.

وتجدر الإشارة أن هذا النفق ينفذ إلى التشييدات الحديثة في جبل حديد، والتي أنشئت في عهد الإدارة العسكرية البريطانية، وعلى مدخله يقف حصن التعكر، وهو حصن قديم أنشيء لغرض حماية الباب من الغزو الداخلي والخارجي. ويستطيع المرء مشاهدة هذا الحصن حال قدومه إلى خور مكسر ماراً بالطريق الخلفي المحاذي للجبل. وتعتقد استناداً إلى الروايات التي سقناها فيما سلف أن هذا المدخل هو البوابة الرئيسية للمدينة من جهة البحر، وهي تقف الآن قبالة ثانوية الجلاء، وعلى مقربة من الإدارة العامة للتربية والتعليم بخور مكسر.

وطول النفق كما يقول هنتر ٣٥٠ ياردة، أي حوالي ميل واحد، في حين يرى أحمد السياغي أن طوله حوالي ٣٠٠ متراً، مما يؤكد أنه من أقدم وأطول الأنفاق في جنوب الوطن اليمني، إن لم يكن في اليمن كله.

وقد استخدم الأسلاف في شقه وسائل بدائية كالمطارق والأزاميل، وهي الوسائل نفسها التي استخدمت في شق أخدود مبلقة في بيحان، وأحواض خزن المياه (الصهاريج) في عدن والضالع، وحضرموت، وبيحان والقصور، والسدود العظيمة، وغيرها من المآثر الخالدة في اليمن.

وعلى هذا الأساس فهو أطول من نفق الساحل الذهبي الحديث الذي ظن أنه أول نفق من نوعه في بلادنا، والذي يبلغ طوله ٥/ ١٤١ متراً، وعرضه ٤/ ٩ أمتار، وارتفاعه ٣/ ١٧ متراً على الرغم من البعد الزمني الذي يفصل بينهما، وحداثة وسائل البناء والتشييد، ووسائل شق الأنفاق في عصرنا الحاضر، بالنظر إلى الوسائل المستخدمة قديماً.

وظل النفق مفتوحاً حتى أوائل عقد الثلاثينات غير أنه اقتصر على مرور عربات نقل الماء إلى المدينة. ولما تم توسيع الثلمة (باب الزيادة)، أو باب العقبة، قامت الإدارة العسكرية البريطانية بإغلاقه، ثم أصبح بعد ذلك نسياً منسياً، فلم يرد ذكره في الدراسات الحديثة على قلتها التي تناولت معالمنا التاريخية والأثرية بالدرس، والتقصي، والتحقيق، كالتقارير العلمية، والدراسات الميدانية التي يقوم بإعدادها الخبراء والاختصاصيون في المعالم.

الحوادث التي جرت على مقربة من الباب:

وهناك أدلة أخرى تؤكد أن هذا النفق هو باب عدن الرئيس، وهي الأدلة المتعلقة بالمواقع الجغرافية، والحوادث التي جرت فيها، وقرب هذه المواقع أو تلك من الباب. فبإنعام النظر في هذه المواقع الجغرافية التي كانت تقوم في هذه الأمكنة

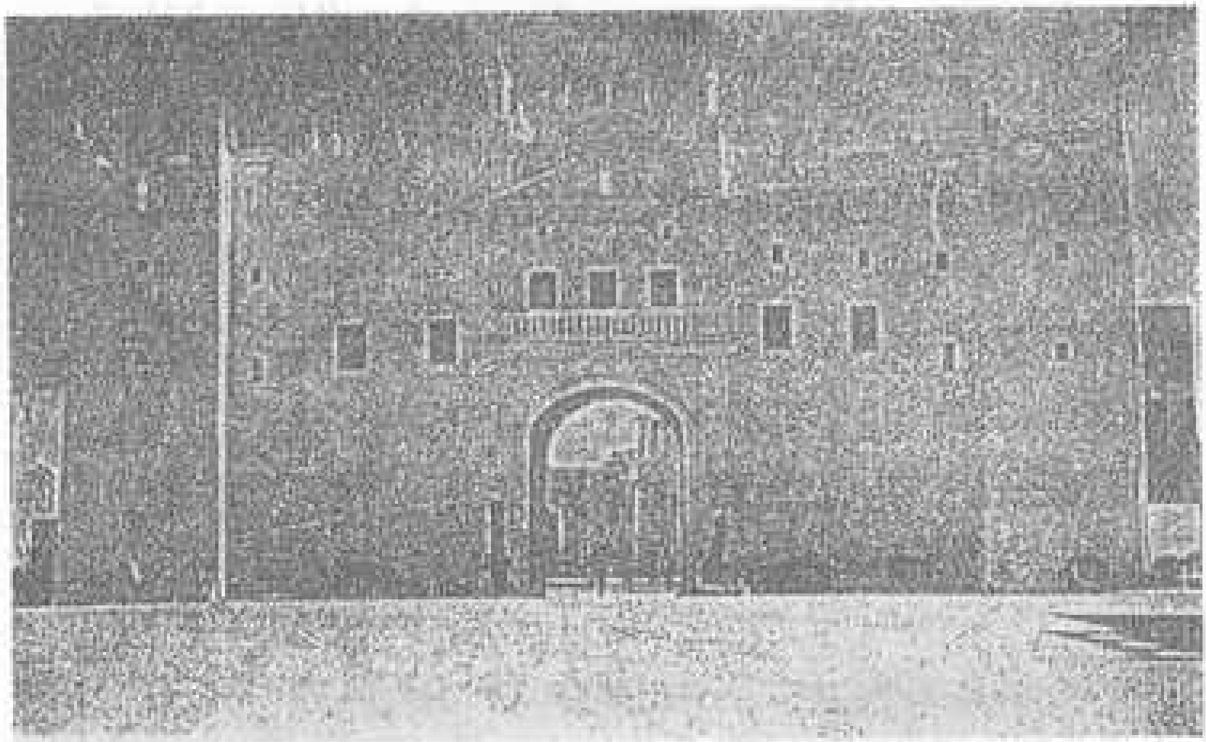

بوابة مدينة الشحر

يتضح جلياً أن ثمة حصناً كنا قد أشرنا إليه فيما سبق كان يقف على قمة جبل التعكر، ويشرف على مدخل النفق، هو حصن التعكر، هذا الحصن كثيراً ما يرد ذكره في سياق الحوادث، والمعارك التي تحتدم عند الباب بين الفئات المتناحرة. فقد ذكر صاحب كتاب (تاريخ الدولة الرسولية) -وهو مؤرخ أو كاتب مجهول- أن علي بن صلاح أوعز إلى حلفائه بمعالجة الباب وفتحه، فقذفه جند الحصن بصخرة هضمته على حد تعبيره. والمستفاد من الروايات التاريخية أن هذا الحصن يقف هو الآخر إلى جانب حصون أخرى تمتد حتى الجبل الأخضر الذي يكاد يكون امتداداً للتعكر في بعض الجهات، وهذا الجبل الأخير يمتد من محطة خور مكسر حتى ثانوية الفقيد

لطفي أمان، وكان يقوم عليه هو الآخر حصن يسمى حصن الخضراء.

ذكر الخزرجي في العقود[٢٣] أن السلطان المجاهد الرسولي هاجم عدن، وفتح باب المدينة وبات في التعكر، ثم نزل من التعكر، وسار إلى الخضراء على طريق الدرب. وتفيد رواية أخرى ساقها المؤرخ الطيب بامخرمه أن قرية تسمى المباءة كانت تقوم على مقربة من الباب، وذكر أن بينها وبين عدن ربع فرسخ[٢٤]، وأنها خربت في عهده حيث أطلق عليها البحر حتى غمرها، في حين يرى الأستاذ حسن صالح شهاب أن القرية كانت تقع بأسفل الجبل الذي حُفر فيه النفق[٢٥]. وهذا يُدعم الرواية التي نقلها المؤرخ محمد بن عمر بافقية المعروف بالشحري من مصدر ما لم يحدده، والتي تفيد أن ماء البحر طلع إلى فوق درج باب المدينة[٢٦]، ربما على أثر عاصفة، أو اضطراب في الأجواء والطقس، وليس ثمة باباً آخر -باستثناء السور- غير باب البر (النفق) يمكن لأمواج البحر أن ترتطم به أثناء المد الشديد أو العواصف العاتية.

ولمزيد من الوضوح ينبغي أن نعرف هنا أن ثمة نقبين أساسيين في السلسلة الجبلية المحيطة بمدينة عدن، أحدهما يسمى باب البحر -حقات- والآخر باب البر كما يجمع المؤرخون، والأخير هو باب الزيادة في أغلب الظن. وبعد المعاينة تبين لنا أن باب حقات يقف على تلة مثله مثل باب الزيادة، ولهذا لا يصل إليه ماء البحر أثناء المد، أما النفق الباب الرئيس للمدينة كما نعتقد، فيقع في أسفل الجبل، وينفذ من جهة البحر إلى شارع أروى، ولهذا فهو أكثر عرضة لمياه البحر.

الحوادث التي جرت في هذه المواضع:

وجرت عدة معارك ومناوشات بين الفئات المتناحرة في سبيل السيطرة على المدينة، وذلك على مقربة من الباب، أو في قرية المباءة نفسها، وكلها تؤكد صحة مانميل إلى ترجيحه في هذا الصدد من ناحية، ومن ناحية أخرى تؤكد أن المدينة كانت محصنة من البر والبحر معاً، على الرغم من تواطؤ بعض الفئات المناهضة لهذا الحكم أو ذاك مع القوى الغازية التي كثيراً ماتستغل التناحر الداخلي بين الفئات الحاكمة. روى الخزرجي في مواضع من كتابه (العقود) أن بعض القوى الغازية

-غالباً- ماتتواطأ مع جند الحصن -حصن التعكر- أو مع غيرهم من الجند المناوئين للحكم، فتهيىء لهم تسلق جبل التعكر، وبذلك يحتلون المدينة. ولكن هذا لايحدث إلا فيما ندر إذ تؤكد الروايات أن الحراسة كانت شديدة على الباب وغالباً ماتنهزم القوى الغازية. فذكر الخزرجي أن الملك المظفر الرسولي خالف على أبيه المجاهد، فأسل مجموعة من العقارب(٢٧) إلى الباب على أن يلحق بهم، فتوجس الجند منهم فطردوهم فلم ينطردوا فأغلقوا باب المدينة، وحينها وصل المظفر وجرت بين الفئتين معركة اندحرت على أثرها فلول المظفر(٢٨).

ويروى أن المجاهد الرسولي -أثناء الحروب الأهلية بين الرسوليين أنفسهم- غزا المباءة وكان فيها عسكر من قبل الظاهر فانهزم العسكر الظاهري في الجولة الأولى، ثم جرت معركة أخرى انهزم فيها المجاهد إلى جبل حديد -التعكر- في الجولة الثانية.

وقد تجري المعارك في قرية المباءة نفسها -القريبة من الباب- ففي سنة ٧٢٥ هـ -١٣٢٥م هاجم المجاهد الرسولي عدن بمجموعة من المماليك والشفاليت، وتوقف في مسجد قرية المباءة، فخرج أهل عدن لقتاله، وجرت بينهما معركة أودت بعدد من رجاله ولاذ البقية منهم بالفرار(٢٩).

ويستخدم العدو المهاجم في كثير من الأحيان وسائل أخرى للاستيلاء على المدينة كالسلالم والحبال.

روى ابن الديبع أنه في العاشر من رمضان هاجم عبد الباقي بن محمد بن طاهر عدن، وفيها الشيخ محمد بن عبد الملك، وأحضر معه نحو مئة سلم، والتقت الفئتان عند جبل حديد وجرت بينهما معركة لم يتمكن فيها عبد الباقي من احتلال عدن(٣٠).

كما تفيد رواية أخرى أن علي بن طاهر استولى على عدن عن طريق تسلق جبل التعكر بالحبال سنة ٨٥٨ هـ - ١٤٥٤م، وحينها كانت عدن في قبضة الملك المؤيد الحسين الرسولي، فقبض على المؤيد، ودخل أخوه عامر بن طاهر من باب عدن مع بقية العسكر(٣١).

إن مجمل هذه الروايات يؤكد بما لايدع مجالاً للشك أن باب عدن الرئيس هو الواقع أمام قرية المباءة حيث تعد هذه القرية مكاناً للتبوق والإقامة إلى أن يتكامل بقية الرفقة القادمين تباعاً لمواصلة السير إلى المدينة من ناحية البر . كما ترسم لنا صورة لابأس بها عن تحصينات المدينة قديماً من ناحية البر ، فهي توحي بأن الباب حديدي ، محكم الإغلاق ، وأن رتبة الباب وحصن التعكر على قدرة من الكفاءة والقدرة على صد هجمات الأعداء .

فقد اتضح لنا أنه كلما هاجمت الباب مجموعة أو قوة دحرت في الحال -في الغالب العام- كما ترابط في كثير من الأحيان وحدات عسكرية في قرية المباءة لحماية المدينة .

باب الزيادة (العقبة):

أما بالنسبة لباب الزيادة (العقبة) فهو الآخر يقع عند مقربة من الباب الرئيس، ولعله في أو الأمر كان في مثابة ثلمة في الجبل قام الرسوليون بتوسيعها[٣٢]، ثم جاء العثمانيون إبان احتلالهم الأول لليمن وزادوا في التوسعة بحيث غدت طريقاً لمرور مركبات النقل المعروفة آنذاك، كما زادوا في إحكامه فأقاموا فيه ثلاثة أبواب على مايذكر بعض الدارسين.

وفي العصر الحديث قام المستعمرون البريطانيون بزيادة في توسيعاتهم بحيث صار يتسع لعربتين وقاموا برصفه بالإسفلت، وأحدثوا فيه تحسينات أخرى.

وعلى الرغم من أن الأستاذ حمزة لقمان قد أغفل ذكر النفق، أو كاد، فإنه ينقل رواية يسندها إلى المؤرخ الهمداني تفيد بأن الباب شق في أوطأ جزء من الجبل[٣٣]. وهو ماينطبق تماما على موضع باب عدن الرئيس (النفق)، فإنه يذهب إلى الاعتقاد أيضاً بأن باب عدن هو باب الزيادة أو العقبة كما يؤكد أنه كان موجوداً منذ ألف سنة[٣٤]. هذا في حين لم يرد ذكر العقبة -باب الزيادة- في تاريخ ثغر عدن لأبي مخرمه المتوفى ٩٤٧هـ ١٥٤١م، مما يثبت أنها شقت بعد عهده[٣٥].

وكيفما كان الحال فباب الزيادة (العقبة) هو أحد أبواب مدينة عدن، بيد أنه باب ثانوي لا رئيسي، شق في وقت متأخر، وكان منذ زمن بعيد عبارة عن ثلمة في جبل التعكر لانعرف بالتحديد متى شقت هي الأخرى، وقد تنبه لأهميتها الرسوليون فوسعوها. وبما أنها كانت في منتصف الجبل أو على تلة منه فقد كان يصعب على عربات النقل التي تجرها الدواب اجتيازها، ولهذا استعمل الأهالي النفق، وظل مستعملاً حتى أوائل عقد الثلاثينات، ثم أغلقه المستعمرون البريطانيون وتحولت وسائل النقل إلى العقبة، وبالتالي برزت أهمية العقبة، وانطمست معالم النفق أو بكلام آخر تلاشت من الأذهان فظن الناس أن العقبة هي باب عدن الرئيس والحقيقة غير ذلك.

باب حقات:

ومن الأبواب البحرية -باب البحر المعروف اليوم (بباب حقات) ويحتمل أن

يكون هذا الباب الآخر في مثابة ثلمة تضرب جذورها في القدم، فقد سبق أن أوردنا رواية ساقها القلقشندي نقلاً عن العبر يقول فيها (ويحيط بها -أي عدن- من جهة شماليها على بعد جبل دائر إلى البحر يثقب فيه من طرفيه ثقبان كالبابين بينهما على ظهر الجبل مسيرة أربعة أيام، وليس لأهلها دخول ولا خروج إلا على هذين الثقبين أو من البحر)(٣٦). مما يثبت أن باب البحر هو مجرد ثقب، أو ثلمة في الجبل.

وتجدر الملاحظة أن مؤرخنا أخطأ الصواب وبالغ في الغلو حين حدد السير على ظهر الجبل كله بأربعة أيام.

ويبدو أن هذا الباب -كثلمة أو ثقب- كان موجوداً أيام بني زريع، ولما قام الأيوبيون بتسوير مدينة عدن من الجبال، أقاموا على الثلمة باباً أطلق عليه باب حقات(٣٧). ولعل الدول المتعاقبة على اليمن شاركت هي الأخرى في توسيعه على مر الزمن حتى جاء عهد الاحتلال البريطاني فزادت الإدارة العسكرية البريطانية في توسعته حتى صار من حيث اتساعه يشبه عقبة عدن (باب الزيادة).

أبواب سور عدن:

يعزو المؤرخون تطور وازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عدن إلى الأيوبيين، وعلى الأخص عهد أبي عثمان الزنجبيلي، وعلى الرغم من سلبيات هذا الوالي وما لحق به من تهم لا تخلو من الصحة، فقد بنى الزنجبيلي المساجد، والمدارس، والحمامات، وفرضة عدن (الميناء القديم) والدور المشهورة، والطرق والأسواق المسقوفة المعروفة بالقيصارية إلى جانب تأسيسه لبعض القرى في عدن كقرية اللخبة التاريخية[٣٨].

وتوافد الناس -في عهده- على عدن من كل فج[٣٩]، فازداد عدد سكانها، وازدهرت فيها الحركة التجارية ازدهاراً ملحوظاً، ولعل أبرز جهوده تشييده لأسوار مدينة عدن البحرية، فقد تنبه آل زريع -في بادىء الأمر- إلى ضرورة تسوير المدينة بسبب قصة طريفة يرويها ابن المجاور[٤٠]، فأقاموا أسواراً ضعيفة سرعان ماتهلمت[٤١]. ثم جاء أبو عثمان الزنجبيلي فأعاد بناء السور بشكل محكم بالحجر والجص[٤٢] دائراً على جبل المنظر إلى آخر جبل العر وركب عليه باب حقات (سالف الذكر)، وأدار سوراً ثانياً على الجبل الأخضر، وحَدّه من حصن الأخضر إلى التعكر على رؤوس الجبال، وأدار سوراً على الساحل من الصناعة إلى جبل حقات وركب عليه ستة أبواب: باب الصناعة[٤٣]. وباب حومة، وباب السكة[٤٤]، وهما بابان يخرج منهما السيل إذا نزل الغيث بعدن، وباب الفرضة، ومنه تدخل البضائع وتخرج، وباب البر، وباب مشرف، وباب حيق، وبنى الفرضة وجعل لها بابين.

ويرى المقدسي الذي زار عدن أن أبواب السور خمسة لا ستة حيث يقول: «ومدوا [أي أهل عدن] نحو البر حائطاً من الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب»[٤٥]. وهي الأبواب التي تبدو جلية في الرسم البرتغالي لمدينة عدن عام ١٥١٢هـ.

بيد أن المرء إذا أمعن النظر في الرسم سيجد أن ثمة بابين يقومان في السور، أحدهما باب الفرضة، والآخر الباب القريب من جبل النوبة، وهو أصغر حجماً منه ويقع في أقصى اليسار، ويحتمل أن يكون الباب الآخر للفرضة أيضا كما تشير رواية

ADEN IN THE YEAR 1512

ابن المجاور . أما الفتحات الصغيرة الشبيهة بالأبواب الصغيرة ، فلا شك أنها نوافذ صغيرة ، وفتحات للقتال كما هو الحال في قلعة صيرة التاريخية ، والحصون الأخرى المنتشرة على السلسلة الجبلية بمدينة عدن . ويذهب الأستاذ حسن شهاب إلى الاعتقاد بأن الأبواب الأخرى تقوم في جهات أخرى من النوب ، لعل الرسام لم يتمكن من التقاطها . وتؤكد معظم الروايات التي ساقها المؤرخون والدارسون أن المدينة كانت محصنة تحصيناً منيعاً من جهة البحر(٤٦) بحيث يصعب احتلالها إلا بعد لأي ومشقة ، ولهذا غالباً مايستخدم الغزاة السلالم لتسلق السور .

يروى أن الإفرنج (البرتغال) هاجموا المدينة وتسلقوا سورها بالسلالم ودخلوها من عند باب مكسور(٤٧) ولعله باب السكة أو حومة ، وجرت بينهم وبين الأهالي معركة حامية الوطيس .

وعلى الجملة فقد كانت مدينة عدن محصنة من كل الجهات ، فالجبال والأسوار تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، مما حدا بابن خلدون إلى أن يقول : «إنها من أمنع مدائن اليمن»(٤٨) .

وقد اندثرت الان الاسوار البحريه، واستخدمت بعض القطع الحجرية المتناثرة والمتبقية منها -كما يرجح بعض الدارسين المحليين- في بناء وتشييد المحطة البحرية التي كانت قائمة بحذاء قصر الثورة (مركز الأبحاث الثقافية حالياً) وقد اندثرت هي الأخرى على أثر الإصلاحات والتشييدات الحديثة.

الهوامش

(١) أحمد السياغي -معالم الآثار اليمنية ص١١-١٤

(٢) الدكتور عدنان ترسيسي -اليمن وحضارة الإنسان ص٧٦

(٣) متلفة: الأرض الخالية الواسعة. حلوق: من الأرض مجاريها وأوديتها.

(٤) د. عدنان ترسيسي اليمن وحضارة الإنسان ص٦٢

(٥) انظر موضوعنا في الحكمة العدد ١٣٠ يوليو ١٩٨٧م.

(٦) ويندل فيلبس كنوز مدينة بلقيس تعريب عمر الديراوي ص١٨٦-١٨٧

(٧) د. جواد علي المفصل٢/ ١٨٨-و١٨٩ ومحمد عزة دروزة تاريخ الجنس العربي ١/ ٦٨ حيث يرد فيه أوس بن عم نصر.

(٨) الهمداني صفة جزيرة العرب ص٩٤

(٩) المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم ص٨٥

(١٠) القلقشندي، صبح الأعشى ٥/ ١١

(١١) الأكوع محمد علي، اليمن الخضراء.

(١٢) حمزة لقمان، تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية / ص٣٠٣

(١٣) أحمد الشامي، رياح التغيير في اليمن ص١٤٥

(١٤) بول نيزان، عدن العربية ترجمة بشير خان ص٤٩

(١٥) أبو الفداء، تقويم البلدان ص٩٣

(١٦) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص١٠٧، وبامخرمه تاريخ ثغر عدن ١/ ١٥

و تعلم أن تسرب روح الأسطورة إلى الأخبار والحوادث يدل على أنها تقترب جذورها إلى القدم.

(١٧) ابن المجاور تاريخ المستبصر ص١٢٨ وبامخرمه تاريخ ثغر عدن ١/ ٤٧

(١٨) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري ص ٢٤٠-٢٤٢

(١٩) اليمن الكبرى، الويسي ص١٦

(٢٠) An Account of the British Settlement of Aden in Ovyatoia - Captain F. M. Hunter.

انظر أيضاً معالم الآثار اليمنية ص١١٦

(٢١) فتاة الجزيرة العدد ١٦ ١٩٤٠م.

(٢٢) المقنطر: المقاول.

(٢٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية تحقيق الأكوع ص٢/ ٤٨

(٢٤) بامخرمه، تاريخ ثغر عدن ١/ ١٨-٣٥ وجاء في الفضل المزيد تحقيق صالحية أن عامر بن عبد الوهاب ابتنى مسجداً بظاهر باب البر وهو مسجد قرية المباءة.

(٢٥) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري ص٢٣٩

(٢٦) محمد عمر بافقية، تاريخ بافقية الشحري (مخطوط) ص٩٦ وردت الرواية في النور السافر بحلف باب بحيث صارت العبارة (طلع ماء البحر على درج المدينة).

(٢٧) قال الهمداني إن قبيلة العقارب تسكن (لخبة) ولعلها بئر أحمد اليوم، وتمتد أرضهم من حواف بئر أحمد على الحدود مع لحج حتى رأس عمران من ناحية البر من مقربة من قرية الحسوة إلى مقربة من قرية بير فقم من ناحية الساحل/ حمزة لقمان القبائل اليمنية -الطبعة الأولى ٢/ ٥١

(٢٨) حمزة لقمان، تاريخ عدن ص٩٥

(٢٩) الخزرجي العقود ٢/ ١٠٣-٤٨-٤٩

(٣٠) ابن الديبع، بغية المستفيد تحقيق شلحد ص١٧٦

(٣١) حمزة لقمان، تاريخ عدن ص١١٠

روى صاحب العقود في مواضع من كتابه أن من ضمن الإمدادات العسكرية التي يقدمها حكام عدن وقتلك المنجنيقات، مما يؤكد أن بعض حصون عدن الاستراتيجية كانت مزودة بها.

(٣٢) وردت في هذه الإشارة في كتاب تاريخ الدولة الرسولية لمجهول.

(٣٣) حمزة لقمان، تاريخ عدن ص٣٠٣، والقلم العدني عدد ٤٠٨ ١٩٦١م ص١٠

(٣٤) المصدر نفسه ص٣٠٣

(٣٥) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري ص٢٣٩

(٣٦) القلقشندي صبح الأعشى ٥/ ١١

(٣٧) قال بامخرمه ص١٤ «وأدار الزنجبيلي سوراً دائراً على جبل المنظر إلى آخر جبل العر، وركب عليه باب حقات».

(٣٨) بامخرمه ١/ ٢٢ تاريخ ثغر عدن ١/ ١٢ وحمزة لقمان تاريخ عدن وجنوب الجزيرة في ٦٦-٩٥

(٣٩) بامخرمه، تاريخ ثغر عدن ١/ ١٠

(٤٠) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص١٢٧

(٤١) المصدر نفسه ص١٢٨ وبامخرمه تاريخ ثغر عدن ١/ ٤٧

(٤٢) المصدر نفسه ١٢٨

(٤٣) المصدر نفسه وفي بامخرمه ١/ ٤٨ باب الصياغة وكذا العبدلي -هدية الزمن ص٢١

(٤٤) لعله تصحيف وصوابه على الأرجح باب السيلة وهو موضع معروف بعدن.

(٤٥) المقدسي، أحسن التقاسيم ص٨٥

(٤٦) ابن خلدون، مختصر التاريخ ص١١٦، وحسن صالح شهاب من الملاحة عند العرب ص٤٨

(٤٧) ابن الديبع، الفضل المزيد، تحقيق صالحية ص ٢٦١-٢٦٣ وابن شنبل تاريخ ابن شنبل ص٢٠٢ (مخطوط).

(٤٨) ابن خلدون، مختصر التاريخ ص١١٦

القلاع والحصون التاريخية
والحوادث التي جرت حولها

كثيرة هي الحصون والقلاع المنتشرة على السلسلة الجبلية المحيطة بمدينة عدن، وقد اندثر معظمها نتيجة للحروب وعوامل التعرية المختلفة، هذا مايوحي به الرسم البرتغالي للمدينة عام ١٥١٢م حيث يبدو جبل شمسان (العر) قديماً، وكأنه كتل من النتوءات الدالة على وجود قلعة أو حصن أو مصنعة. ويديه أننا لن نتمكن من

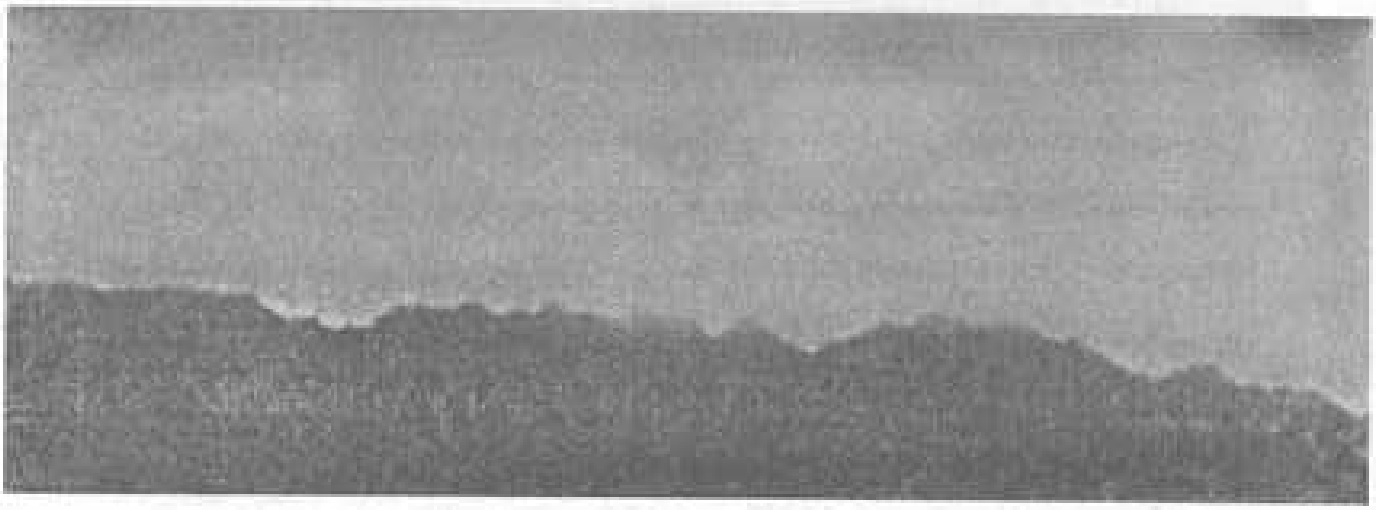

تقصي ورصد هذه الحصون بأجمعها كما ينبغي أن يكون، بل نكتفي بدراسة أهمها، وتناول الأحداث التي جرت حولها أو فيها قدر استطاعتنا.

فيم تكمن أهمية هذه الحصون والقلاع؟:

يبدو جلياً من خلال تتبع الحوادث ومجريات الأمور أن هذه الحصون كانت بمثابة نقاط حراسة تشرف على مدينة عدن وتحميها من الغزو الأجنبي، وكانت تتمركز فيها ثلل من الجند، كما استخدم بعضها الآخر لمراقبة السفن القادمة إلى ميناء عدن

القديم الواقع أسفل صخرة صيرة (جبل صيرة) فقد أجمع مؤرخو اليمن المحليون أن ثمة حصوناً كانت تستخدم لرصد حركات السفن التي تمخر عباب البحر. فقد عين آل زريع موظفين اثنين يقومان بمراقبة السفن القادمة إلى الميناء، وكل منهما يقف على حصن من الحصون القريبة من الشاطىء، فإذا ما شاهد أحدهما حركة سفينة قادمة وتيقن من قدومها إلى الميناء نادى بأعلى صوته -هيريا- فيرد عليه الموظف الآخر، وحينها يسمع ولاة المدينة النداء فيتوجهون إلى الميناء لاستقبال السفينة القادمة، وهناك يقومون بالإجراءات اللازمة والضرورية، وهذه وظيفة ثانية من وظائف الحصون قديماً، بيد أن الحصون المرتفعة والعالية تستخدم في الغالب الأعم في الحروب، ورصد تحركات الأعداء وحماية المدن، ومنها مايستخدم في مراقبة السفن وهي على الأرجح الحصون الواقعة على مقربة من الميناء.

وثمة حصون أخرى هي بمثابة مأوى للسكنى، أو قصور للحكام، كالحصون المنتشرة على جبل المنظر، والتي اندثرت تماماً. وهذه الحصون بالطبع تختلف اختلافاً كبيراً عن حصون الحراسة، ومراقبة السفن، والدفاع الوطني فقد كان بعضها مقراً للحكومة الأيوبية والزريعية، وبعضها الآخر دوراً للضيافة وسكناً لرجالات الدولة. والمتبادر أن الأقدمين كانوا يطلقون على مثل هذه الدور حصوناً، ففي حضرموت يطلق المؤرخون لفظة مصنعة على قصر ربما سكن فيه أمير أو سلطان كمصنعة بدر بو طويرق في هين كما يزعم الناس هناك، وهي كما شاهدت رسمها عبارة عن قصر كبير يقيم فيه بدر عند مجيئه إلى هين. ويذكر عمارة اليمني وغيره من مؤرخي اليمن أن حصن الخضراء المشار إليه في موضوعات سابقة كانت تقيم فيه الحرة بهجة أم علي بن أبي الغارات أحد حكام عدن في العصر الزريعي، وتضيف الروايات أن سبأ بن أبي السعود، أو بلال بن جرير المحمدي أخرجها عنوة من القصر عندما انتصر آل زريع على بني الغارات، واحتل آل زريع الحصن ووجدوا فيه أموالاً وذخائر عظيمة. وهذا يؤكد أن الحصن هو بمثابة قصر، وليس حصنا كالحصون المشار إليها سابقاً، وقد أطلق عليه المؤرخون حصن الخضراء لأنه ربما كان على مقربة من جبل الخضراء.

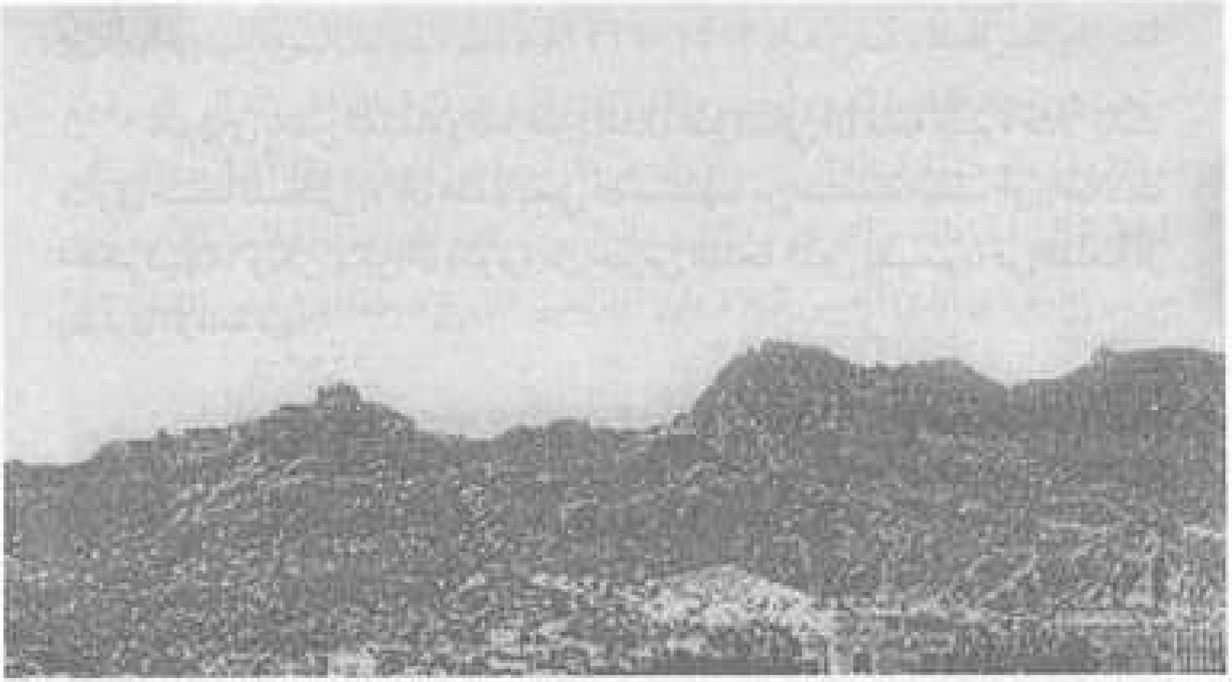

ويستبعد أن يكون المراد بالحصن هنا تلك القلعة الدفاعية التي تقوم على تل يشرف على محطة بترول خور مكسر القريبة من جبل حديد، فهذه القلعة، أو الحصن كان يستخدم كنقطة حراسة فحسب، وسمي بالخضراء لأنه يقف على السلسلة الجبلية، أو بالأحرى على الجبل الممتد من محطة البترول إلى محكمة عدن الجزئية، وهو المسمى بجبل الخضراء.

وقد استند بعض الدارسين إلى هذه الروايات واعتبروا هذا الحصن قصراً للحرة بهجة أم علي بن أبي الغارات معتمدين في ذلك على رواية عمارة اليمني في كتابه تاريخ اليمن، وغيره.

وأعتقد ببطلان هذه الرواية، أو عدم فهم الباحثين لها الفهم المطلوب، ولا أعني أن المؤرخين الأقدمين لايدركون مايقولون، ولكني أريد أن أقول إن الدارسين المحدثين يقعون في الغالب الأعم في الوهم، فقد ظنوا أن القصر الذي ربما كان يسمى قصر الخضراء، أو حصن الخضراء لقربه من الجبل هو الحصن الصغير القائم على تل يشرف على محطة البترول بخور مكسر، ونحن نستبعد ذلك لأنه

لا يليق بمقام الحرة بهجة أم حاكم عدن، والاعتقاد بعكس ذلك يعد في اعتقادنا ضرباً من الوهم.

نعم يرى بعض العلماء والدارسين أمثال شيرتسكي أن قلعة صيرة مثلاً كانت مأوى حسناً للسكنى إلا أن هذا لايعني أن سكانها من ساسة البلد، أو رجالات الحكم فيها، ولكن يمكن أن يكونوا من حرس القلعة الذين يقيمون في القلعة أو يطيلون الإقامة فيها.

وقد أذهلت هذه الحصون والقلاع والتحصينات والتسويرات معظم الجواسيس الأوربيين الذين كانوا وقتذاك يجوبون الشواطىء اليمنية بحثا عن مناطق النفوذ ومنهم الجاسوس البرتغالي دي كوفيلها.

وثمة قلاع وحصون أخرى تنتشر على قمم جبل الخضراء وجبل التعكر، والسلسلة الجبلية الممتدة إلى شمسان يبدو جليا أنها قامت على أنقاض قلاع وتحصينات قديمة، وبعض هذه القلاع والتحصينات يرجع ربما إلى العصر التركي، والبعض الآخر شيده المستعمرون البريطانيون منذ احتلالهم للعاصمة عدن. ومما يؤكد صحة مانذهب إليه أن الحجارة المستخدمة في بنائها أشبه بحجارة التحصينات والجسور التي ابتناها البريطانيون على جبل التعكر والذي شقت في لحفه طريق العقبة. ومن أبرز قلاع وحصون عدن القديمة قلعة صيرة التاريخية التي تقف على صخرة كبيرة أطلق عليها المؤرخون اليمنيون جبل صيرة، في حين وردت في المصادر الملاحية اليمنية على مايذكر بعض المهتمين بالملاحة وعلوم البحار باسم (صيرة) أي صخرة، وهذا وجه التسمية في مانعتقد. وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في هذا الصدد لامجال لذكرها توخياً للاختصار، بيد أن بعضهم يذكر أنها شيدت حوالي القرن الثاني عشر للميلاد، ويرجعها البعض الآخر إلى القرنين الخامس أو السادس عشر الميلادي، أما بقية الآراء في هذا الصدد فهي من قبيل الترجيح والتخمين.

وجملة القول إن القلعة كانت مأوى حسناً للسكنى، فقد حفرت فيها بئر سماها المؤرخون بئر (الهرامسة) لعلها كانت تستخدم لقضاء الحاجات المختلفة. ويذكر المؤرخون أن القلعة كانت أداة فاعلة وقوية لحماية ميناء عدن القديم الواقع في

لحف الجبل. وشهدت هذه الجزيرة -جزيرة صيرة- معارك خاضها اليمنيون ضد الغزاة والقراصنة، ففي عام ١٥١٣-١٥١٦م هاجم البرتغاليون مدينة عدن، وتصدى جند القلعة لهم وأجبروا الفونس البوكرك قائد الحملة إلى التراجع والتقهقر، وحمله غيظه إلى إحراق السفن الراسية في الميناء. وقد أشارت المصادر الخطية إلى الحادثة، وذكرت من الشهداء الذين سقطوا في ساحة المعركة عمر بن موسى المجيدي الذي أحسن البلاء على حد تعبير المؤرخ محمد بن عمر بافقيه. كما

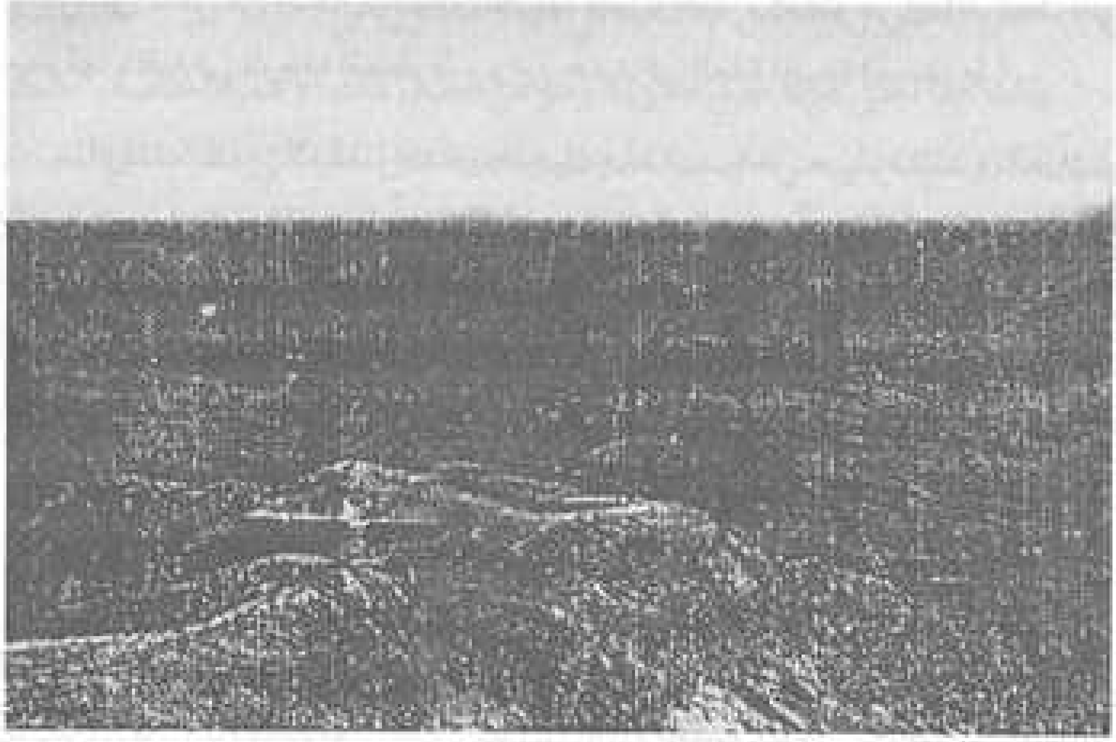

أجمعت المصادر التي وقفنا عليها على أن المقاتلين اليمنيين كانوا يمتلكون قدرة فائقة في القتال في هذه المعارك، كما كانوا يمتلكون العدة والعتاد، وكانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً بفضل تجهيزات القائد اليمني مرجان الظافري. ويؤكد ذلك ماذكره ابن الديبع في (الفضل المزيد) من أن الأمير مرجان أبرز لحسين الكردي -قائد الجيوش المملوكية- من آلة القتال وعدة الحرب مابهره. ويبدو من إشارة وردت في البرق اليماني للنهروالي أن حكام اليمن الأقدمين كانوا يخزنون هذه الأسلحة في القلعة فقد قال ص٢٤٩ «إن قاسم بن الشويع مولى عدن من قبل مطهر الأعرج التجأ إلى

الإفرنج واستدعاهم إلى القلعة عدن فأطلعهم إلى القلعة وأراهم مافيها من العدد والآلات والمنعة وأعطاهم المدافع العظام. . . .».

ويظهر أن التحصينات القوية التي أحيطت بها مدينة عدن قد ساعدت على صد الغزاة والقراصنة في المراحل الأولى من الاستعمار الاستيطاني، عكس ماكان يحدث في السواحل اليمنية الأخرى كسواحل حضرموت مثلاً التي تعرضت لبطش القراصنة والغزاة وعبثهم، فقد ساعد على العبث غياب حرس الشواطىء، وعدم وجود أي شكل من أشكال الحماية الطبيعية فيما نزعم، وكما توحي به الحوادث التي يسوقها بافقيه في تاريخه المخطوط، وابن حميد في العدة المفيدة (مخطوط).

وقد كان هؤلاء القراصنة يجوبون هذه السواحل حدود القرن العاشر الهجري، ويعيثون فيها فساداً، ينهبون ويسلبون السفن، ويأسرون ويقتلون الأهالي بحيث غدت هذه السواحل مسرحاً للنهب وسفك الدماء وهتك الأعراض في حين كانت السلطات الحاكمة تقسم المدن والقرى فيما بينها، وتشن حرب لاهوادة فيها ضد القبائل والجماعات المناوئة لها، وتتصرف تصرفاً مشيناً في المدن الآهلة بالسكان. فقد روت هذه المصادر -على سبيل التمثيل لا الحصر- أن السلطان بدر الكثيري أهدى جملة من القرى والمدن للإمام ناصر بن أحمد وذلك حفاظاً على مصالحه الاستراتيجية في المنطقة، وخوفاً من بطش الأئمة الزيدية في الوقت الذي بلغت فيه القرصنة الإفرنجية البحرية مبلغاً كبيراً في هذه السواحل، حيث كان الإفرنج يأخذون السفن والمراكب ويبيعونها للسلطان بالآلاف الأشرفية، وهي العملة المستعملة وقتذاك، ثم يقوم السلطان ببيعها لأصحابها بأضعاف أثمانها. نعم ربما كانت الظروف والملابسات المحيطة بالسلطات آنذاك تدعو إلى التأني في وضع الافتراضات والأحكام، إلا أننا لانعدو الحقيقة لو قلنا إن هذه السلطات هيأت السبيل، ومهدت الطرق لعبث هؤلاء الغزاة والقراصنة في سواحلنا، وبالتالي فرض السيطرة الاستعمارية على البلاد، هذا إلى جانب أن السواحل الواقعة في هذه الجهات كما أسلفنا كانت خالية من التحصينات الدفاعية.

ولما هل القرن التاسع عشر الميلادي كانت معظم تحصينات مدينة عدن قد

تعرضت للاندثار بحكم عوامل مختلفة أبرزها حملات الغزو الاستعماري بمختلف أشكاله على المدينة، فقد تعرضت القلاع والحصون المنتشرة على جبل العر للتدمير بحيث محيت تماماً، أو كادت باستثناء بعض القلاع والحصون التي تعود ربما إلى العصر التركي، والتي مازلنا نشاهدها على قمم الجبال، وكانت قلعة صيرة التاريخية حينها تئن تحت وطأة الجروح الدامية، بيد أنها ظلت صامدة صموداً لا نظير له، وتصدت لأعتى قوة شهدتها خلال عمرها المديد، ألا وهي القوة الاستعمارية البريطانية.

جبل المنظر ومجالس الأدب في البلاط الزريعي:

يقف هذا الجبل قبالة جبل صيرة، وهو من الجبال ذات الأهمية الخاصة، حيث كان مقراً لحكام عدن على مر عصورها، وعليه قامت دار المنظر التي ذكرها ابن المجاور في تاريخه وقال إن الأيوبيين هم بناتها، في حين ينفي بامخرمه ذلك ويقول مافحواه إن آل زريع كانوا يسكنون المنظر قبل استيلاء الأيوبيين على عدن، فلعل الأيوبيين جددوا هذه الدار.

ويعد هذا الجبل - جبل المنظر - من المواقع الأثرية الهامة فيما نظن، شيدت فيه الدور القديمة والحصون.

وتشير الروايات إلى أنه كان موئلاً للعلماء والشعراء الوافدين من البلاد العربية إلى عدن كابن قلاقس، وأنه كانت تقام فيه مجالس الأدب التي يحضرها لفيف من شعراء اليمن شمالاً وجنوباً كالعندي، وعمارة اليمني، واليافعي، وفيها تعلم عمارة اليمني قرض الشعر فمدح الداعي محمد بن سبأ.

ومما كان يقوم في حقات - وهي على مقربة من المنظر - مسجد شيده رضي الدين التكريتي والي عدن في العصر الأيوبي، وحديقة للأفيال، وحمام سمي بحمام حسين.

وعلى الجملة تعد هذه الساحة ساحة حقات هي الأخرى موقعاً آثارياً هاماً.

معالم مختلف عليها ذات علاقة بالحصون والقلاع:

أشار بافقيه الشحري في تاريخه المخطوط الموسوم بتاريخ بافقيه الشحري إلى جبل الخضراء، أو حصن الخضراء الذي يقع على الأرجح عند محكمة عدن الجزئية، أو

بالأحرى يمتد من محطة بترول خورمكسر إلى محكمة عدن الجزئية. كما ألمح ابن الديبع في الفضل المزيد إلى أنه يقع في ساحل أبين، وقد أخرجه بعض الدارسين من هذا الموضع وقذفوا به عنوة إلى جبل المنظر أو المعاشيق. وأخذ بهذا الرأي معظم الدارسين الذين تناولوا الموضوع، أو ألمحوا إليه في معرض حديثهم عن عدن، ومن هؤلاء الدارسين الأكاديميين الدكتور محمد كريم إبراهيم صاحب كتاب (عدن، أحوالها السياسية والاقتصادية في القرن السادس الهجري)، وقد وقع هذا الكتاب في العديد من الأخطاء والأغلاط التاريخية، وخاصة في تحديد المواقع التاريخية بمدينة عدن، فجبل الخضراء وفق اعتماده على هذا الرأي هو الواقع في رأس معاشيق أو حقات، أو جبل البنديرة، وهو الرأي الذي أخذ به مؤخراً الأستاذ سلطان ناجي، وصوبه الأستاذ حسن شهاب في أحد أعداد الحكمة اليمانية. والحقيقة أن ثمة مواقع في عدن اختلف الباحثون المحليون في تحديد مواضعها، ويبدو أن السبب الرئيسي الذي أدى إلى اختلاف وجهات النظر في هذا الصدد هو عدم معاينة الموقع المختلف عليه، واختلاف التسميات من زمن لآخر، ودليلنا على ذلك بافقيه الشحري في معرض حديثه عن علي بن سليمان الطولقي والصراعات التي احتدمت بينه وبين الأروام (الأتراك) في عدن، ومحاولته الاستيلاء على المدينة يذكر عدداً من الجبال التاريخية تحمل تسميات مختلفة منها جبل المكريم، أو المكرم وباشورة، أما الخضراء فيطلقه كما تبدى لي على الحصن الذي تسمى الجبل كله به فيما بعد. ويذكر الأستاذ شهاب أن ثمة حصناً لعله قام على أنقاض قلاع أو حصون تركية قديمة يقع على قمة هذا الجبل.

ولاشك أن تسميات بعض المعالم والمآثر القديمة قد تغيرت واتخذت لها أسماء مختلفة على مر الزمن. فقد كان جبل (شمسان) وهي تسمية حديثة بعض الشيء يسمى (جبل العر) أو(العز)قديماً، وكذا جبل حديد الذي كان يسمى (التعكر) قديماً.

ويبدو أن تغير التسميات اقتصر على الجبال وحدها كما نزعم، أما المواقع والمعالم والمآثر التاريخية الأخرى فقد ظلت محافظة على أسمائها التاريخية القديمة. ولهذا ينبغي أولاً تحديد الموقع بدراسة الحوادث التاريخية التي ألمحت إليه، أو جاء في سياقها، فمثلاً نستطيع أن نعرف موقع جبل الخضراء من خلال دراسة الحوادث التاريخية التي تذكر أن

علي بن سليمان سالف الذكر هجم على عدن واحتلها في عهد الأتراك، وكان هجومه من جبل الخضراء حيث هاجم جنده الحصن - حصن الخضراء - واحتلوه، ومنه نزلوا إلى المدينة والحصن المشار إليه هو الواقع في أعلى قمة الجبل على الأرجح، وبكلام آخر فجبل الخضراء يقع ضمن نطاق منطقة ساحل أبين، وقد ألمح إلى هذا ابن الديبع في معرض حديثه عن حوادث جرت في هذا الموضع قال: «فنزلوا - المماليك - ساحل أبين تحت حصن الخضراء». الفضل المزيد لابن الديبع تحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية ص٢٨٤ . ومع أن النص واضح هنا فقد أخطأ المحقق الأستاذ صالحية هو الآخر في تعريفه حصن الخضراء وقال: «هو مايسمى حقات في جبل الشوافي، فيه كانت ترسو السفن الشراعية».

أما الأستاذ حمزة-وله فضل الريادة في دراسة معالمنا-فيذهب مذهباً آخر إذ يرى أن جبل الخضراء هو معاشيق حالياً، فإذا صح ذلك فالغزو الطولقي جاء من جهة الصومال لا من المنطقة اليمنية نفسها، ونحن نعرف تاريخياً أن الطوالق من قبائل دثينة التي كانت تقلق الحكومات حين ذاك، أو كانت لاتنصاع لأوامر الحكومة، وليس هذا بيت القصيد، ولكني أريد أن أصل إلى نتيجة مفادها أن الطوالق قدموا من جهة البر، وزحفوا على جبل الخضراء. ولا يعقل بأي حال من الأحوال أن يكون زحفهم من جهة البحر، حيث جبل المعاشيق، أو حقات، فنحن لا نظن أنهم يمتلكون سفناً بحرية، وحتى لو كانت هذه السفن في حوزتهم لما قدموا من هذه الجهة، فهناك جهات أخرى، ومنافذ طبيعية تفضي بالسفن قادمة من بالحاف أو دثينة إلى بحر عدن دون اللجوء إلى منافذ أخرى، ربما كان القدوم منها سبباً في هزيمة محدقة بقواتهم.

وصفوه القول إن جبل الخضراء هو ماحددناه سابقاً استناداً إلى ما ألمح إليه ابن الديبع، ويافقيه الشحري، وغيرهم، وسوف تظل هذه الاختلافات مثار نقاش بين الدارسين حتى يقيض الله لها باحثاً حصيفاً يدرسها الدراسة الوافية ويضع الأمور في نصابها، وهذا لن يأتي إلا بدراسة ميدانية دقيقة للمواقع، ومقارنة نتائج هذه الدراسة بالمصادر المختلفة، والحوادث التاريخية الكثيرة التي تعرض للمعالم أو تشير إليها بين الحين والآخر، على أن يسلك الباحث مسلكاً موضوعياً ومنطقياً في تحديد مواقعها.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
تصدير	٥
من تاريخ جزيرة صيرة	١٩
منارة عدن التاريخية	٤١
أبواب عدن التاريخية	٥٩
القلاع والحصون التاريخية والحوادث التي جرت حولها	٧٩

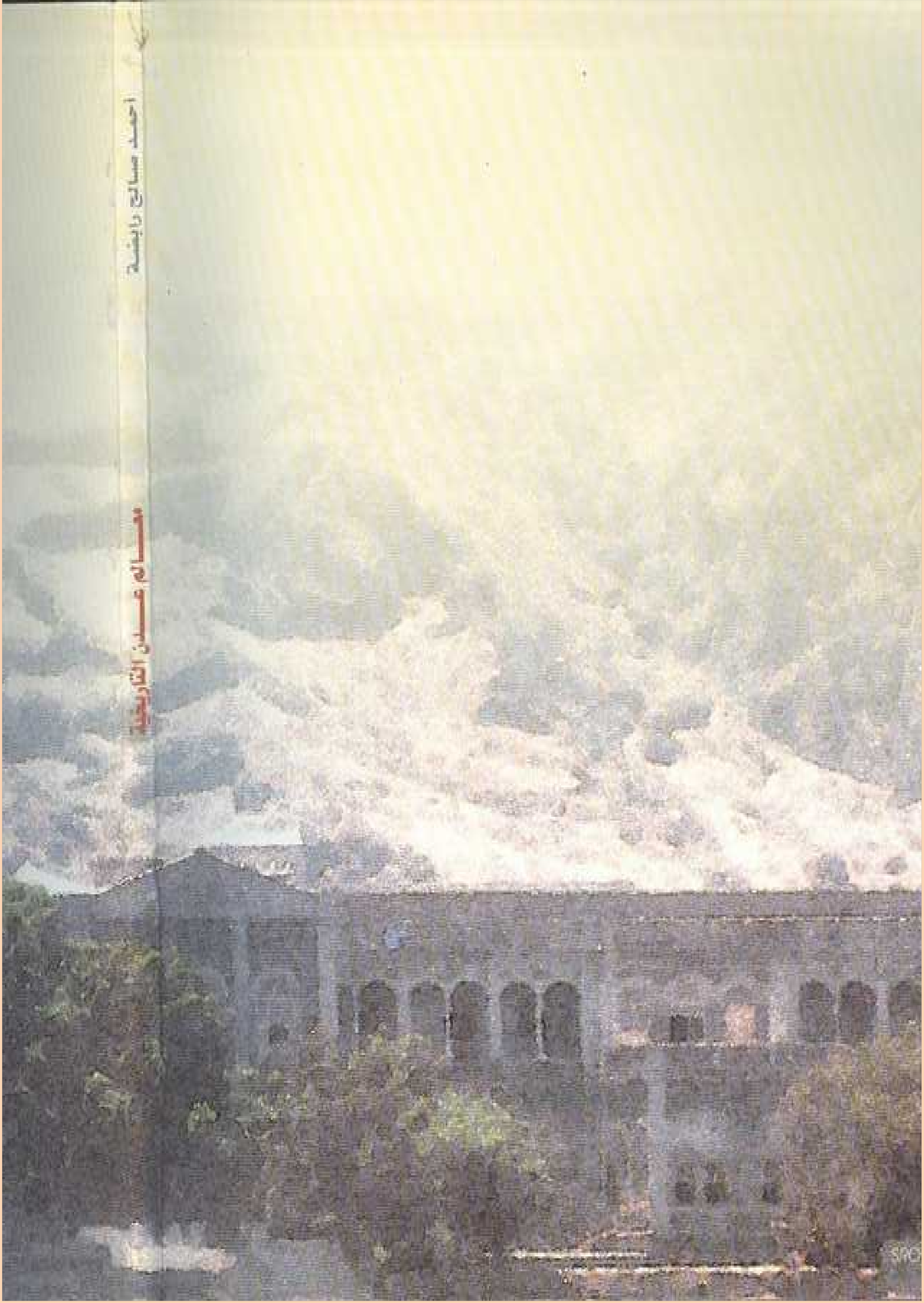
معالم عدن التاريخية
أحمد صالح رابضة